فى الطريق إلى العقاد

١ - تصحيحات واجبة

أيها القارىء الصديق .

١ — إليك أقدم هذه «الرسالة» بحقها وواجبها .

فأما هذه الرسالة ففصول فى «النقد» بعامة والأدبى منه بخاصة ، اخترتها لك مما كتب فى هذا الموضوع أبو الأدب والنقد العربى الحديث الأستاذ عباس محمود العقاد .

وهى باكورة رسائل قد صممت العزم بعد طول تردد وتدبر على أن اوافيك بها حق الرسالة تباعا ، وكلها تدور حول محور واحد هو « العقاد وأدبه » وإن بعضها واجبها « عن العقاد » وبعضها « من العقاد » ومنه هذه « الفصول »

وأما حق «الرسالة» فهو ما أعلمه فيك من الكفاءة والإخلاص لما تقرأ ، أو القوة والأمانة عليه ، وأعلم أن هذا الموضوع يعنيك كما يعنى كل مشتغل فينا بالأدب والثقافة والتعليم والسياسة لأن العقاد حمل نصيبا من أعباء وطنه ، وقاسمه أقداره ومحنه ، ولم يكن من ذلك مفر ، مادام قويا أمينا عليه .

وإن لك عليها من الحق مثل ما عليك ، فهكذا يجب أن تجرى أمور الحياة بين العقلاء الناصحين . بل إنك سترى فيها حرصا بالغا على أداء هذا الحق لك كأكرم ما تؤدى الحقوق إلى أصحابها بالمعروف .

فلقد كتبها لك أستاذنا الكبير بغاية القوة والأمانة ، والشواهد على ذلك بالغة الوضوح فيها ، فإن كل سطورها لتجيش بالخاسة والصدق كما جاشت فى أغوار سريرته ، وعاناها فى تجاربه ، وتمكنت من يقينه ، وامتلأت بها حياته ، إلى أن فاضت من عبقريته كلمات ، فجاءت مخضلة بدم فكره ومهجة قلبه ، مصورة لكثير من خصائص شخصيته الجبارة ومزاجه المتوقد وأخلاقه المكينة . وإنى لمطمئن إلى أنك ستتلقاها كما كتبها صاحبها ، وأديتها لك بعد أن حملتها قريحتى ووضعتها هنا على وهن ، بكل ما فى الوسع من قوة وأمانة ، لعلى أنك تقبل على مطالعاتك محتفلا ، وأنك تهيء جانبا من خير

أوقاتك لها ، وبالك على أمكن ما يكون راحة من الهموم، وملكاتك أشد ما تكون استجماعا لشتاتها ،وتفتحا لمطالعاتك وشوقا إليها ، حتى تعاطفها بكل ما أثرجت عليه سريرتك من شعور وفكر وعزيمة وخيال ،ولعلى أنك تستحضر لها كل مامر بك من تجارب نفسية،وكل ما حصلت عليه خلال ملاحظاتك ومطالعاتك السابقة من معارف مختلفة تناسبها ، وتصل أسبابك بأسبابها ، وتلف جذورك بجذورها ، حتى تجتمع أنت وصاحبها معا فى إهاب إنسانى واحد ، وتمتزجا روحين فى حياة واحدة ، وهذه — كما تعلم — أقصى غايات « الوصول » أو « الاتصال » بين القارىء والكاتب ، وهذه حسنات أمثالك من « المقربين» ، وإن خير قراءة ما أقبلنا فيها على ما نقرأ كإقبال العابد على عبادته ، أو المجاهد على جهاده، أو الحاج على كعبته ، ليقف على ذاته ، وينميها ، ويصل ما بينها وبين الوجود كله ، فهو منا ونحن منه ، وحقنا فيه كحق كل موجود فيه .

فمن ارتبنا فى قوته أو أمانته على هذه الرسالة فلنعلم عين اليقين أنه ليس من « القارىء الصديق » الذين هم وجهتنا هنا ، ومن الخير لها وله ولنا جميعا أن نطويها عنه ، وأن لا نماريه على شىء صغير أو كبير من أمرها ، فما هى له ولا هو لها ، وليس له عليها من حق ، وليس لها عليه حق ، فإنما يكلف بالأعمال أهلوها الأقوياء الأمناء عليها ، فمن لم يكن كذلك فقد سقط عنه التكليف بها ،« ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها» ، ولسنا مؤلهين حقا حتى نعرف سنن الله ونسير عليها ، ولا أعرف لأحد حقا فى شىء إلا أن يكون قويا أمينا عليه ، وما أرى إسناد عمل إلى غير قوى أمين عليه إلا ضربا من الخيانة والابتذال لا يمليه إلا لؤم متأصل أو عمى مطبق أو غفلة شاملة أو هوى مريض يشل الإرادة والعقل والضمير، فمن طلب شيئا فحققه . ورحم الله الغزالى صاحب « المضنون به على غير أهله » .

وليس أصحاب الرسالات فى حاجة إلى شهرة ، وإنما الشهرة مطلب الأدعياء الفارغين ، ومن طلب الشهرة أخطأه كل تقدير . وإنما حاجة أصحاب الرسالات إلى من يفقه رسائلهم ، ويعاطفهم همومهم ومواجدهم ، ثم ليؤمن بعد ذلك أو ينكر ، فإن نكرا على علم خير من تسليم على جهل ، ولا تعرف الإيمان إلا القلوب الكبار .

ومن عرف الكرامة والحق لنفسه وللناس تهن عليه كل شهرة ، يقول العقاد :

دع الشهرة العوراء تقتاد غافلا ... على حكمها يجرى وإن طاش أو ظلم
إذا الدهر لم يعرف لذى الحق حقه ... فللدهر منى موطئ النعل والقدم
إذا جاز بيع الذكر فى شرع أمة ... فلا كان من ذكر ولا كانت الأمم(١)

بل من طلب الحق لم يأسف أن تفوته السلامة ، ومن طلب السلامة فاته من الحق بقدر حرصه عليها ، يقول العقاد :

هما سبيلان من يبغ السلامة لا ... يأسف على الحق أو يحلم برؤياه
ومن بغى الحق فى الدنيا فلا أسف ... على السلامة إن خانته دنياه
قد يهجر الأمن من ذلوا ومن وهنوا ... وما تفرق قط الهول والجاه
فاختر لنفسك : إما المجد فى خطر ... أو الهوان ، وقد تشقى ببلواه
وما اختيارك إلا ما خلقت له ... إن الطبائع ما ترضاه نرضاه(٢)

ب — وأدع هذا مليا ثم أعود إليه لبالغ خطره، كى أعجل إليك بتصحيح آخر لا مفر من العجلة به ، وهو أن هذه الكلمة التى اضطررت إلى أن أغلف بها رسائلى «المختارات» إليك، لا تتكفل لك بحل كل مشكل ولا فتح كل مغلق من موضوع رسائلى «العقادية» كلها وهو «العقاد وأدبه» ولا جانبه الخاص الذى تتضمن هذه الرسالة نماذج منه، وهو «النقد عند العقاد»، وربما لا تعدم خلال كلمتى إشارات إلى أشياء من هذا وذاك كإشارات الخرس: ترمز ولكنها قد لا تبين بإجمال ولا تفصيل .

هذه الكلمة

أو كما قال المعرى — وقد ابتلى بمثل بلوانا وعز عليه الصمت كما عز علينا :

«لا تقيد على لفظى فإنى ... مثل غيرى تكلمى بالمجاز»

ولا عليها ولا عليك أن تتخطى كل حرف منها بعدما أسلفت ، فتمضى قدما إلى «الرسالة» أو الموضوع كله كما يروقك ويسعدك ، ولعل هذا أن يكون أجدى عليك وأولى لك، فما أريد أن أكون وسيطا بين العقاد وأحد. ولا وصيا على أحد، فإنما حسب عاجز مثلى همومه. وما آتانا الله قوة إلا لتسخرها وتنميها وتثمرها بالجد والدأب ، ولكن جرت «السنة» بين الأصدقاء أن يتبادلوا الرأى فى همومهم المشتركة بالمعروف .

وما أردت لتكون كلمتى بحثا فى الموضوع كله أو بعضه تجمع له معلوماته، ثم تصنف وتنقد على نهج علمى للوصول من المقدمات إلى نتائجها الوكيدة أو الراجحة أو المحتملة، مع تعزيزها بالعلل والتفسيرات والشواهد . ولكى تنفى عن

(١) و (٢) «من ديوانه» وحيا الأربعين ص١٦٧ و ٥٣

ذهنك ماقد يعرض من تواضعى أو إهمال لى — حتى ترى أن الله لم يحرمنى حظى من الغرور الذى أفاءه على بعض خلقه ، وأنى لم أهمل فى حقك أدنى إهمال — أود أن أؤكد لك أنى لم أكتب اليك فى هذا الموضوع حتى خبرت من أسراره ماندر أن يختبر من أسرار أى موضوع من يدعون بيننا متبجحين الاختصاص والامتياز به .

ولم أرد كلمتى عرضا لجوانب منه ، ولا حديث أستاذ إلى مثله أو تلميذه ، فالأساتذة فى غنى بأستاذيتهم عن أمثالى جميعا ، وما أرى لى من اقتدار الأستاذية حظا يؤبه به . وماأردتها رحلة خلال «دولة العقاد الأدبية» وإن لم تخل من ذلك .

إنما أردتها حديثا مهلهلا يسيرا جامعا لشتات من «بعض الخواطر» التى اعتاجت فى نفسى خلال ريادتى «دولة العقاد» نتذاكر به فى طريقنا إليها ، فيمضى الحديث حيث نريد ويقف حيث نريد ، كما تجرى الأحاديث بأمثال ذلك بين الأصدقاء من الطلاب الهواة أمثالى فى مجالسهم ومراسلاتهم ، إذ يسترعى أحدهم — بعبارات خاطفة متقطعة — نظر صديقه ما استرعى نظره من مقروءاته أو مسموعاته أو مشاهداته أو نحوها مادام يهواه ويعيه مثله ، ويلفته إلى جوانب لفتته منه ، وقد يفضى إليه — وهو مشفق من تطفل الرقباء ورقابة المتطفلين — ببعض رأيه فى موضوعه ، أو يستطرد منه إلى أصوله أو نتائجه ، أو نظائره أو نقائضه ، أو آثاره فى نفسه أو وحيه إليه . ثم يترك له أن يتقصى أمره على النحو الذى يؤثر ، إلى الحد الذى يشاء ويقدر .

إن كلمتى لا تعدو أن تكون كذلك ، فهى كما عنونتها لك « كلمة قارىء صديق إلى القارىء الصديق » وإنى لأرجو ألا تضيق بذلك ، فما قامت « المقالة » — وهى فن من فنون الأدب — أول أمرها عند مبدعها مونتانى إلا لتنهض بهذا المهم ، وإن إختلفت المنفعة والمتعة منها بحسب الأقلام .

ومهما يكن فأنا لا أدعى لكلمتى هنا إلا أنها كذلك الحديث المهلهل اليسير بين الأصدقاء ذوى الهموم المشتركة ، ولم أزد على ذلك إلا أنى مكنت لك من بعض الموضوع بما قدمت إليك من نماذج له هى هذه «الفصول المختارة» لأن مصادها متعددة شتيتة ، وبعضها عسير المنال لطول العهد به ، ثم إنى قنعت بأن تكون كلمتى ضيفا صديقا على المختارات ، ومن أجل ذلك لم أبد هنا إلا اليسير من رأيى فيها وفى صاحبها وأدبه بعامة . وذيلت مختاراتى بما أرجو أن يكون فيه بعض الجدوى لك ، ولو بإثارة التفاتك إلى نقضه أو الاستدراك عليه . حتى «النقد» وهو ما كان أولى بالحظ الأوفر أو الأوحد من هذه الكلمة لم ألمسه إلا لمساً خفيفاً لما ستعلم .

حـ — إن كلمتى فى مقام « الرائد » أو « المريد » من جهات مختلفة ، وهذا هو المسوغ أو الموجب الوحيد لقيامها بين يدى هذه المختارات ، ولولا ذلك لوجب أن تتأخر عنها ، بل أن يقوم بينهما برزخ وإن كانتا لا تبغيان ، فتقدمها فى المكان هنا هو عنوان تأخرها فى المكانة .

ريادة ورواد

وأنت لا شك خبير بما يوجبه « الآيين » النفسى النابع من الفطرة السليمة على الرائد أو المريد ، فإن لا يكن ذلك شفيعاً فهى خطأ يعتذر منه . ورحم الله أمرأ عرف نفسه ، فعرف قدر غيره ، وما أحوجنا فى هذه « الريادة » الحرجة إلى رحمة الله . وإننا لننزل أفاضل أدبائنا من أنفسنا منزلة الأستاذية المحبوبة الموقرة بما لهم علينا من فضل جم وجهاد كريم ، ولكنى لا أظن أديباً بين أدبائنا — رحمه الله فعرف قدر نفسه وقدر العقاد — لا يستحى من مناجاة نفسه بأنه أبلى فى ميدان الأدب ما أبلى العقاد ، وأفلح فلاحه وأسدى مثل فضله ، ثم لا يستحى من تقدمه عليه فى مقام أدبى إيمانا بأنه يفضله أو يضارعه فى سيرته الفكرية وأعماله الأدبية معا .

فلولا أنها ريادة وإرادة تؤكد معرفة الفضل له والاعتراف به لكان أولى بشاد مغمور مثلى — هو فوق ذلك من صغار خريجيه — أن يكون أشد حياء ، فيتأخر بكلمته راضيا مغتبطا إلى حيث يقفه قصوره وفضل أستاذه عليه . وإن من مصادر الرضى والغبطة فى بعض النفوس بين خلائق الله أن تعرف الفضل لذويه ، وإنما يعرف كل فضل أهلوه ، وما عرف إنسان فضلا لغيره إلا بفضل من جنسه فى نفسه ، وصدق من قال « إننا مؤلهون بقدر ما فينا من ألوهية » .

ولهذا نرى واجبا علينا — ونحن فى مقام ريادة وإرادة — أن نرفع أكرم التحية والإكبار والولاء لأوائل الرواد من الأجداد والآباء لنهضتنا الأدبية الحديثة على ما أبلوا فى الكفاح ، وأسدوا من خيرات : كرفاعة الطهطاوى والبارودى وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وسعد ، وفتحى زغلول ، وقاسم أمين ، وتوفيق البكرى ، وإسماعيل صبرى ، وولى الدين يكن ، وشوقى ، وحافظ ، ومطران ، والعقاد ، والمازنى ، وعبد الرحمن شكرى ، وطه حسين ، وهيكل ، والآنسة مى ، والزهاوى ، والرصافى ، وجبران ، وميخائيل نعيمة ، وأبى ماضى ، وغيرهم من ذوى الفضل والسابقة فى الجهاد الأدبى . ولقد كان المسلمون منهم أكثر أعباء إذ كان يثقلهم من التقاليد الإسلامية ما لم يكن يثقل غيرهم ، فكانوا — كما لاحظ العقاد عند كلامه عن « مطران » — يسبحون ضد التيار ، وكان غيرهم يسبح معه[1] .

---

(١) « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » ص ١٩٩

و — وهذا مقام صداقة وريادة والصديق لا يخدع صديقه ، والرائد لا يكذب أهله ، وما اصطفيتك بعملي هذا إلا لأفضي إليك ببعض مواجدي فعل الأصفياء الكفاة ، لأنفض عني أزمة أحس كأنها تخثر الدم في عروقي ، ولولا ثقة بالله كأني أراه ، وشعور بالواجب يملأ أقطار النفس حتى يكاد يذهلها عن الألم ، ويعميها عن المكروه لعدلت عن هذه الريادة الحرجة وانطويت على نفسي أجتر حسراتي على ما أرى وأسمع من سوء حال العالم وحال الأدب فيه ، وهي حال لا ريب أنها تكربك كما تكربني . ولكني أقدم بعد إحجام وفي النفس ما فيها .

ريادة حرجة

ودع أعباء الموضوع جانباً وإن كنت أحس أنه أكبر مني ، ولكن العجز عن النهوض به كله لا يعفي من بذل الجهد المستطاع ، بل لعله يغري بالجد والصبر على تذليل ما يستطاع من مصاعبه .

ودع كذلك — أيها القارىء الصديق — الخطر البالغ ممن تجنبناهم ولن يتجنبونا من جمهرة الأصدقاء وعامة القراء ، ومن ليسوا بقراء ولا أصدقاء ، يدسون أنوفهم فيما ليس لهم وليسوا له ، وليس يخفى عليك بينهم أعداء العقاد الذين يعادونه لإحن ، ويودون لو ضربهم الله بالصمم قبل أن يسمعوا عنه خيراً ، وإنهم لكثير ، وهؤلاء عدو لكل من يذكره بخير . فقد جربت منهم كثيراً وجربني منهم كثير ، وحسبك أن تعلم أنه لم تجلب على ولاية أحد ما جلبت على ولاية هذا العظيم المظلوم من عدوات الخصوم ، وإن لم أعرف ولاية في حياتي كانت أكثر بركة على نفسي كولايته ، وهذه بتلك ونحن الغانمون .

هـ — ويكفي أن أشير من بين خصومه إلى الشيوعيين والصهيونيين والاستعماريين من رجال السياسة وأعوانهم المبشرين باسم العلم أو الدين . ومنهم معظم المستشرقين ، وهم جميعاً أعداء للإسلام الذي ينشره العقاد بأسلوبه العصري فيجتذب إليه المستنيرين ، وبعضهم أعداء الإيمان الذي يدعو إليه العقاد بكتبه الفلسفية وسيره عن العظماء ، فيبثه في قلوب المستنيرين أيضاً من جميع المتدينين .

خصوم العقاد

ويضاف إلى هؤلاء الخصوم الدكتاتوريون وسماسرة السياسة ، والمتجرون بالدين ، ودعاة الانحلال باسم التقدم أو الحرية ، وهؤلاء وسابقوهم تؤيدهم دول وجماعات ذوات نفوذ عالمي أو نفوذ محلي كبير ، ولا ينسون حملات العقاد الجبارة التي تصيب مقاتل مذاهبهم ومؤامراتهم في الصميم ، ومن عقوباتهم له على حملاته ما تراه دائماً في الصحف — والكتب أحياناً — من حملات أولئك وأذنابهم ضده ، ولا ترى مثلها ضد

غيره من أدبائنا جميعا ، ومنها أنه لم يترجم له حتى الآن كتاب إلى لغة أوربية على حين ترجمت لغيره من شيوخ الأدب — بل صبيته أيضاً فينا — كتب وقصص هى دون كتبه قيمة ، لأن الترجمة فى أيدى المستشرقين والمبشرين والصهيونيين ، وهؤلاء لا يخدمون من يحارب أغراضهم وأغراض مواليهم وحكوماتهم كالعقاد .

والعقاد يحارب هؤلاء أجمعين ، وأما أدباؤنا الآخرون فأكثرهم يسكت عن هؤلاء أجمعين ، وقد ينوه بفضائلهم عن طريق مباشر أو غير مباشر ، أو يرضيهم عفواً أو عمداً بما يكتب ، وأندرهم من يغضب فريقا ولكنه يرضى الآخرين ، فيعوضونه عما خسر من الغاضبين . وهناك من يحاربون بعض تلك الطوائف ولكنهم ضعاف النفوذ من ناحية ، وعجزة الأقلام من ناحية .

وهناك حساد العقاد بين الأكاديميين والقائمين على الثقافة الرسمية والصحفيين وناشئة الأدباء والمناخين ممن يحسون بالعجز عن مساواته فى أدبه وسيرته معا ، فينفسون عليه عظمته كأنها كانت لهم فأخذها خلسة أو غصبا ، ولا ينسون له — وهنا سواد الإحنة — أنه بذهم فى أدبه وسيرته بغير ما لقب ولا إجازة جامعية مزخرفة نالها مثلهم ، ولا سند حكومى ولا رشوة لأحد بمنصب ، ولا شفاعة لأحد فى قضاء مأرب فى الحكومة أو غيرها ، ودون تملق لأحد مثلهم أو غيرهم . ومن آثار ذلك أن عملا واحداً من أعمال العقاد لم يعرف طريقه كغيره إلى جامعاتنا ومعاهدنا العالية ولا مدارسنا الثانوية حتى الآن ، وإلى الكتب التى يؤلفها القائمون على شئون الثقافة فيها هنا وهناك . ثم سكوت الصحافة تقريبا عن التنويه بأى كتاب له كغيره ، وكأنما لم يسع الأكاديميون والقائمون على الثقافة الرسمية والصحفيون بأديب اسمه العقاد هو أعظم أدبائنا أدباً وأعزهم سيرة وأكثرهم إنتاجا ، ولا استثناء مما قدمنا غير ما كان قبل بضع سنوات من تقرير فصول من «ساعات بين الكتب» فى بعض المعاهد العليا «وعبقرية عمر» فى إحدى فرق المدارس الثانوية مدة عامين ، وقد جلب ذلك عليه عداوات كثير من ضعاف المعلمين ، إذ كانت كتبه محنة عسيرة لهم ، ويضاف إلى ذلك إشارات طفيفة فى بعض الصحف أحياناً نادرة إلى بعض كتبه ، وقد لا تخلو هذه الإشارات من غمز . وإن كان أكثر أولئك ينتحلون آراءه عن فهم أو غير فهم .

وهناك المتزمتون من الغلاة فى الرجعية يأخذون عليه تجديده ، والمتطرفون من أدعياء العصرية يكرهونه لاتزانه ولأنه لا يخوض فيما يخوضون فيه من عبث وغرور ، وذلك لتعدد جوانب عبقريته وتماسك شخصيته وفرط رعايته للمسئوليات .

ويضاف إليهم رجال الشركات والثروات الضخمة الذين يحاربهم كما يحارب

الشيوعيين ، ثم الأحزاب والجماعات والأفراد التى تخالف سياستها سياسته ، ثم العاجزون عن قراءته من مراهقى الشبان والكهول .

ولكل طائفة من هؤلاء موقفها منه لأسباب تخصها أو تشارك فيها غيرها ، وليس هنا مكانها ، ولكننا هنا معرضون لحرب كل أولئك . لأن شعارهم « ولى العدو عدو ، يحارب كما يحارب العدو الأصيل » وهذه من أيسر مخاطر الريادة ، وهم لن يعدوها ريادة بالحق بل غزوة باغية ، ولذلك لن يتجنبونا مهما حاولنا أن نتجنبهم فماذا سيكون موقفنا نحن فى هذه الخصومة وغيرها .

و — أما نحن فنعدها ريادة بالحق مهما تحرشوا بنا ، وإن كنت أحب العقاد وأجله وأثق به ، وأرجو ألا يضلنى هذا فى أمره واعياً مختارا . أو يحملنى على أن أجاوز به قدره ، فأظلم نفسى وأظلمه ، كما أرجو ألا يحملنى الحذر من الاندفاع على أن أبخسه حقه ، فأظلم نفسى وأظلمه كما أرجو ذلك مع غيره .

ريادة بالحق

إذ ليست المحبة والإعجاب والثقة — فيما أعلم من أمره وأمرى — إلا وسيلة من وسائل المعرفة الصحيحة للناس والأشياء ، ووزنها بالقسط ، وإعطاء كل ذى حق حقه من التقدير ، دون محاباة لولى ولا تحامل على غيره بل ليست محبة العظمة واحترامها والإيمان بها — عندى — إلا وجهتنا إلى الله ، ولا طريق لها — فيما أرى — إلا حرية الضمير والتمسك بالقيم العليا ، وبسط أكناف الأخوة للإنسانية حتى نشملها جميعا بالرعاية والمودة ، والعقاد هو هادينا إلى ذلك إذ يقول :

إنا لمن معشر حب الجمال لهم ... حب لمن كان فى الدنيا ومن كانوا (١)

ويقول: من ساء بالناس ظنا دون ما ألم ... أحق عندى بسوء الظن والتهم

أسيء ظنونك لكن مكرها أبدا ... كما تظن ببعض الآل والحرم (٢)

وهذا أسلوب حياة متزنة نحاول أن نعتصم به مع الولى والعدو ، ونحاول أن نفلح فيه رغبة فى سلام النفس وسكينة الضمير ، وهو أسلوب نفضله وندعو إليه ، إذ لا ضير فيه على أحد إلا صاحبه ، فما فيه من غرم فهو عليه وما فيه من غنم فهو له ولغيره ، ولا يبخس معه ذو حق حقه ، ولا تقال فيه كلمة لا يستحقها ، وهذا هو أسلوبى هنا فى هذا الخلاف بين العقاد وتلك الطوائف وغيرها وإن كنت من مريديه .

لست أعرف الولاء لإنسان سبيلا إلى الغش أو المحاباة أو الظلم ، بل إن الولاء

---

(١) « ديوان العقاد » ص ٤٠ (٢) ديوانه « وحى الأربعين » ص ٤٦

عندى أولى أن يكون سبيلا إلى المجد والأمانة فى محاسبة الولى ، فإن الإنسان ليشتد فى محاسبة وليه ، ويحمله من الأعباء أكثر مما يحمل غيره ، فمن جنح عن هذا العزم إلى الترخص مخلصا فهو الولى الجاهل ، ومن جنح إليه مداهنا فهو العدو الألد ، وإن ارتدى زى الولى .

إساءة الولى إساءة ، وإحسان العدو إحسان ، وللنيات والبواعث تقديرها الواجب فى كل إساءة وكل إحسان ، وإن كانت النفوس لتحنو على عيب وليها وتغتبط بفضله ، ولا تشعر أحيانا بمثل ذلك تجاه غيره ضعفاً منها ، وربما يتبيغ بها الضعف تجاه العدو فتشمت بعيبه وتضيق بفضله ، والنفس الإنسانية عرضة دائماً لهذه المحنة ، ولا حيلة للإنسان فى مدافعة ضعفه إلا بطول الجهاد ، وطول المراقبة ، وكثرة المراجعة لنفسه ، وهذه حيلة عزيمة إن لم تعصمنا من عوارض الضعف كل العصمة فهى ضمان أن لا نهزم أمامها إلا فى الفينة بعد الفينة .

وما أشك فى أن «القارىء الصديق» مثلك لو عرف فضل العقاد كما أعرفه لأحبه وأعزه ووثق به مثلى ، بل لا أشك فى أن أعداءه لو عرفوا فضله لتبدلت عداوات شانئيه لغير هوى مريض حباً وإعزازا ، ولانفطرت مرائر شانئيه لهوى مريض بعضاله وحسداً ، ونحن نود لهؤلاء وهؤلاء أن يعرفوه على حقيقته ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، وأكبر عيوب خصومه بل أوليائه أنهم لا يعرفونه كما يجب أن يعرف .

ز — ومحنة الغيور المطبوع مع هذا الرجل أنه إذا عرفه لا يستطيع الحياد تجاهه ، فإما أن يكون معه أو يكون عليه . يعرفه فيرى رجلا «فتى» فارساً مؤمناً بمبادئه ونفسه ، قد اتخذ شكته ، وشهر سيفه ، وحمل صليبه ، ذياداً عن عقيدته التى امتلأ بها يقينه ، وأرصد عليها حياته ، وهناك شراذم أعدائه قد سال بهم المعترك حوله وبادءوه القتال ليعلقوه على صليبه أو يرتد عن عقيدته ، وهو معتصم بيقينه ، حريص على أن يكيدهم كما كادوه حفاظاً على عقيدته وحياته ، وهم ينوشونه من كل جانب ، فلا يملك إلا أن يصدق الحملة عليهم ، وضرباته الجبارة تهوى عن يمين وشمال . إن المبتلى بالغيرة والجهاد حين يراه كذلك لا يملك إلا أن يختط سلاحه أو يكتفى بخشبته — إن لم يكن له غيرها — ثم يهرع بها إلى المعترك فإما أن ينصره فيشاركه مصيره ، ولا جزاء له منه إذا انتصر إلا الغبطة بنصر عبادته ، أو يعلق على خشبته بجانبه إن قدرت عليه الهزيمة ، وإما أن ينضم إلى أعدائه ليقاتله

له أو عليه

ويتلقى ضرباته الجبارة، فإن صرعوه لم يظفر هو منه بسلب إلا ما يثيبه به من آثر صفهم ، وإن صرع هو لم يعدم من عداوة العقاد دمعة أسف على مصرعه ، بل لا يعدم منه أن يصلى عليه ويبوئه مثواه، ويستنزل على قبره الرحمات ، لأن الرجل مطبوع على الإيمان والغيرة والنضال، وليس مطبوعا على الحسد والحقد والبغى ، ولا توجد فطرة مؤمنة غيور مناضلة إلا كان البر والعدل والرحمة من خلائقها الأصيلة .

وفى بلاد لم تستقر فيها الموازين، لا يعز الحياد أو « الاعتزال » على طلابه فى الصراع بين الحق الذى لم يتميز بعد والباطل المتلبس بالحق ، ولا يعدم المحايد بل المبطل أن يفوز بسمعة « العقل » و « الحكمة » إلى جانب ما يفوز به من مغانم أخرى .

أما نحن هنا ففى ريادة بالحق لا سيف معنا فيها ، وكل عدتنا خشبة هشة نتوكأ عليها فى الطريق، ونهش بها السيوف التى تتصدى لنا ، وقد لا تفلح الخشبة الهشة فى صد سيف، ولكنى على ثقة أنها لن تنوء بى إذا ظفرت بمن يصلبنى عليها ، ولست جزعا من هذه النهاية الكريهة إذا هى أفلحت أن تؤكد الإيمان بمبدأ كريم فى قلب إنسان واحد.

وهى خشبة لا من أجل العقاد ، بل معه ومن أجل مبادئه الكريمة ، فما أعرف أشخاصاً بل مبادىء يؤمن بها رجال غيورون عليها ، يرصدون حياتهم من أجلها ، فنحن من أجل هذه المبادىء وحدها مع كل مؤمن بها، غيور عليها، راصد حياته من أجلها، سواء كان اسمه العقاد أو غيره من الأسماء ، فتلك سمات صائرة لمبادىء كريمة خالدة، ومن الخير للإنسانية أن تصونها لأنها شرفها وضميرها وهاديتها إلى السماء.

وليست هذه إلا أيسر مخاطر الريادة ، وإنما المحنة الحقة هى أنى أقدم هنا عليها وأنا من بعض الصواب فى رجهتى على شك، ومن خطأ فيها على يقين ، ولو عرفت مكان الخطأ لعدلت عنه ، وأقسى من ذلك هو أننى من جدوى بعض الصواب التام هنا على شك ، ومن عاقبة الخطأ على يقين ، فأما غيرك فما أطمع فى عذر منهم ، وأما أنت فغاية مطمعى عندك أن تعرف مكان الصواب هنا ، وألا تعفينى من مغبة خطإ مادمت تعرف شفيعى فيه ، وهو أننى صارحتك بأمرى هنا ، وبذلت وسعى من القوة والأمانة فى تحرى الصواب .

ع — وربما كان البلاء الأكبر هو ما يعانيه الأدب فى العالم بعامة وبلادنا بخاصة .

وإذن فلندع أولئك الخصم على ما فيهم من محذور، ولننظر إلى حالة الأدب الذى محنة الأدب يتخبط مثل كل شىء فى بلادنا وغيرها بين النهضة والانتكاس ، فأنت تعلم أن الأدب صلاة روح لروح ونجوى ضمير لضمير ، وهى لا تتم إلا بالتعاطف بين السريرتين

فى شوق حتى تمتزجا، وترى إحداهما الأخرى فى نفسها فتسمع وحيها. وتعرف أسرارها.

فماذا ترى الآن بيننا ؟ إن المحنة التى يعانيها الأدب فى العالم ولا سيما فى بلادنا الشرقية المتخلفة محنة من أشق المحن، لا لندرة القيم الممتع منه، بل لغلبة زائفه على صحيحه، ورديئه على جيده، وطغيان أحاديث الفضول والتسلية بالفضائح والجرائم — مع ضجيجها ودويها — على الكلمة الهادئة التى هى ثمرة التجربة الحكيمة وزبدة الحياة الصحيحة.

والأسباب كثيرة وإزالتها فوق وسع الأدباء جميعا، إلا أن يظفروا «بالقارىء الصديق» مثلك: يعرف الحق فيعرف أهله كما قال الإمام على، فأينما نظر الإنسان راعه الإقفار الروحى وحدة الأنانية بين الأفراد والطوائف والأمم والأحلاف، فى حربها وسلمها، وتعاونها وتنازعها، حتى ليبدو لنا فى فترات الضعف كأن عناية الله قد تخلت عن ذرية آدم وحواء وتركتهم للشيطان. بل أين الشيطان القديم الهزيل الذى كان يهش بالعصا أو يتعوذ بالله منه فينحسر خاسئاً فى الظلام — من ملايين الشياطين التى تتمثل فى زبانية الحرب والسياسة والاقتصاد والآراء الهدامة والآلات الجهنمية، وملايين الكتل التى يسخرها أولئك وقودا لما يضرمون من الحروب والمشاحنات والفتن. ولعل رأس البلاء كله فى هذه الكتل ونخاسيها، لأنهم ذوو السلطان الأكبر.

وأينما سار الإنسان لا يسمع غير هذه الكلمة تصك سمعه: «الحقوق، الحقوق، حقوق المرأة، وحقوق العمال، وحقوق الفقراء وحقوق القراء كأنما نحن فى جنة سقطت فيها التكاليف ونسخت الواجبات، فلم يبق أمام أهلها إلا أن يشيروا إلى ما يشتهون فإذا هو حاضر كأبدع ما يتخيلون، دون أن يحركوا له يدا ولا رجلا، فإذا خابوا فى أدنى مطلب فهم المظلومون المعذبون فى الأرض: الأرض التى كان ينبغى أن تكون جنة ولكنها لا تريد عند هؤلاء المخمورين.

أينما نلتفت يبدو لنا كأن كل سلطان قد أفلس، وأن كل راع يحاول أن يتخلى عن مسئولياته قبل أن يطيح به تمرد رعيته، حتى رعاية الأبوة الحانية بدت كأنها لون من العدوان على حقوق الأولاد، ورعاية الرجولة الغيور لحرمها بدت كأنها بقية من قسوة الرجل على المرأة أيام الهمجية، وامتياز إنسان بعظمة فى أفق الروح أو الفكر أو الشعور بدا كأنه ضرب من ظلم الاستبداد بحقوق الجماهير.

وفى مثل هذا الجو لا بد أن يكمد الأدب والفن وكل كريم من الثقافات ولا يروج إلا التافه العفن من كل شىء لأنه يوافق مستوى الكتل وأهواء النخاسين، وكأنما العظمة الانسانية فى أى أفق إنسانى رفيع عدوان على هؤلاء.

ط — فهل نيأس ؟ لا يأس ولا تشاؤم وفى الوجود مثلك ؟ فطالما نكبت الإنسانية بمثل ذلك أو دونه ولكنها نجت لأن بنيتها فوق كل المحن، وإنا لقادرون، فإنه ما من إنسان - مهما يبلغ ضعفه أو يبلغ غروره بقوته - إلا وهو يملك ألف ضعف من قوته التى يتوهمها ، وقد أودع الله فى نفوسنا ملايين القوى ، وهى فيها كامنة ولو استثرنا أقلها لجئنا بالمعجزات ، ويكفى أن نقاوم عوامل الهزيمة فى نفوسنا لنعرف جبروت هذه القوى الخفية .

الخلاص

يشكو اليك طفلك — وهو يسايرك — تعبه من السير ويطلب اليك أن تحمله فإياك أن تشفق عليه لتحمله ، فتضيعه وتتعب نفسك ، بل ادفع اليه بعصاك أو بأى عود وقل له « اركب هذا الحصان يحملك مادمت تعبا » . إنك حينئذ ستلقى عنا - وأنت تسعى وراءه - بعد أن عدا به هذا الحصان الكريم وربما يسبقك إلى الغاية .

علينا إذن أن نبحث لأنفسنا ولغيرنا عن هذه العصا أو هذا الحصان، لنعرف ما أفاء الله علينا من قوى جبارة . فلم يكن عمل المصلحين إلا الاهتداء فى النفوس إلى القوى التى تحيل العصى أحصنة كريمة لهم وللناس وهذه كلمات الحياة فيها ، وإنما آفتنا أننا نجهل مكامنها فينا لا أننا ضعاف ، فارفع رأسك إلى ما تريد تعرف سبيله وتطرد لك أسبابه وتهن عليك مصاعبه ولتذكر أننا كلنا راع ومسئول عن رعيته » .

إن هذا العصر على مافيه من سوء وخلل ليتمخض عن ميلاد عصر جديد ، تعرف فيه الإنسانية نوعا أكرم من الإخاء، وما هذه الويلات إلا أوجاع المخاض التى تبشر بقرب ميلاد النور الذى سيشرق ليتعارف الإخوة المتقاتلون فى الظلام ، ولن يتهيأ ميلاده إلا إذا تيسر بجهادنا مطلعه . إنها قيامة ولكن من عالم الأحياء لا من عالم الموتى « وإن فى السماء لخبرا وإن فى الأرض لعبرا » وهناك « صوت صارخ فى البرية » ألا « من كان له أذنان للسمع فليسمع » و « إنما يسأل عن ذنوبهم المجرمون »

فعلينا أن نعرف الحق لنعرف أهله ، وأن نعرف الناس به ولا نعرفه بالناس ، وإلا بتنا نتخبط فى تيه من الضلال وبحران من الحيرة لا مخرج منه حتى يقضى علينا فى أتعس حال . وعلينا أن نعرف أنه لاحق لإنسان فى شىء إلا بواجب، وأن الميزان هو القوة والأمانة معا ، وما أرى مقادير السموات والأرض تقوم إلا بهذا الميزان القسط ، فليس هنا موجود أولى من غيره بأمر إلا لأنه قوى أمين معا عليه ، وما عدل الناس عن هذا الميزان فى أمر إلا فسد ، ثم امتد منه الفساد إلى غيره من أمورهم حتى أفسد حياتهم ، ولا أمسكوا بهذا الميزان فى أمر إلا صلح وامتد منه الصلاح إلى غيره من أمورهم حتى صلحت لهم الحياة .

ى — وهذه المختارات دعوة إلى الحق عن طريق الأدب ونقده، ووسيلتها أن تنبه القوى الكامنة فى نفسك لتنطلق بك على صهواتها إلى الغاية ووسيلتها أن تدلك على كلمات الحياة وتعرفك كيف تقرأها فى نفسك وفيما حولك وتزن بها كلمات الناس. فما العناصر التى ركبت أنت منها إلا العناصر التى ركب منها الوجود، ولا النواميس التى تحكمك إلا النواميس التى تحكمه، فأنت منه وإليه، وأنت به وهو بك، وليست نفسك إلا صورة مصغرة له، وليست كلماتك إلا صدى كلماته. ولولا هذا التشابه فى العناصر والتركيب والنواميس بينك وبينه لما كان لك قوام عليه، ولا وعيت منه شيئا.

اللغات

وعلى حسب ما تمثل تعبيراتنا من حقائق الكون يكون حظها من الحق والخير والجمال، ولو انطبعت فيها هذه الحقائق بصور خيالية أو معان مجازية. وما اللغات — وكل وسائل التبلاغ الإنسانية — إلا رموز عما ينطبع فى وعينا من حقائق الكون أو كلماته، وعلينا نحن بعزمنا أن نمزق حجبها وننفذ إلى ما تذخر به من أسرار كونية فى نفوسنا وفيما حولنا، بعد أن تستقر فى وعينا، فنعرفها ونعرف ما بينها من أسرار.

إننا لا نعى من حقائق الكون إلا ما يتحول داخلنا إلى معان أو صور أو عواطف أو أخيلة، فنعبر عنه برموزنا من لغات وألحان وغناء ورسوم وتماثيل وحركات، أو نتلقاه عن إنسان مثلنا وعاها عن هذا الطريق. فنستعيد التجربة كلها كما جربها من خلال هذه الرموز، ومن الخطأ أن يتحجر وعينا أمام الرموز كما يفعل عباد النصوص والكلمات بيننا من صغار المشتغلين بالأدب والقانون فتقف حجبا بينهم وبين حياة الناس وأحوالهم بدلا من أن تهديهم إليها.

الألفاظ وغيرها من الرموز حب لا ينبت ولا ينمو ولا يزدهر ولا يثمر حتى يغرس فى النفس عميقا وتلتف جذوره بجذورها، ويغتذى ملء إهابه بكل ما أشرجت عليه ملكاتها، وينبض بكل ما تنبض به من أسباب الحياة. وجذور الكلام هى جذور الحياة فى النفس، والنفس بنت الحياة وحفيدة الطبيعة وفيها كثير من عناصر أمها وجدتها، وهى صورة صحيحة لكثير من خصائص هذه وتلك على السواء.

والألفاظ وغيرها من الرموز ليست إلا بلاغا عما يطفو على سطوح النفس الإنسانية من أفكار، ومعظم هذه الأفكار عامة بين الناس، ولذلك فهى وحدها التى تستطيع الرموز التقاطها وإبلاغها. ووسائل التعبير مهما يبلغ حظها من التبلاغ أو البلاغة لا تستطيع أن تنقلها إلى نفس يختلف حظها عن حظ المبلغ فى التركيب

والسعة، ولولا تشابهنا فى التركيب لما أفلحت تلك الوسائل فى التفاهم بيننا ، وهل استطاع الإنسان قديماً وحديثاً أن يؤلف من الحيوانات ويطبع على آدابه إلا الحيوانات التى تعودت أن تعيش جماعات ، وانطبعت على آداب الاجتماع وهى آبدة.

مهما يكن فما من إنسان ممتاز إلا له لغته أو أسلوبه الخاص ، حتى المتحدون فى الكلام بلغة ، لايتكلمونها بصورة واحدة تماما — وإن كان هذا هو الظاهر للنظرة الأولى — بل يتكلم كل منهم بلغته الخاصة ، فهناك لغات لهم عدة وإن بدت لغة واحدة ، وعدد تلك اللغات بقدر عدد المتكلمين بها من الممتازين ، ولكل متكلم ممتاز معجمه الخاص بمدلولات كلماته لأن له معجما نفسيا خاصا .

واجبنا إذن أن نفهم لغة كل إنسان ومعجمه حتى نعى عنه ما يريد إبلاغه إيانا ، وما لم نفقه لغته الخاصة لا ندرك ما يقول مهما يبلغ كلامه من الوضوح ، بل تظل كلماته أمامنا رطانة بلغة عجمية .

ما وراء اللغات

ك — اللغة وغيرها لا تعبر إلا عما يطفو فوق سطوح النفس من أفكار ، ولكن وراء هذه السطوح أغوار سحيقة حافلة بالأسرار أو الأفكار التى نشعر بها ولا تعرف وسيلة نبلغها بها غيرنا . واللغات مهما تعظم وتتسع عاجزة أشد العجز عن التقاط تلك الأفكار ، لأن اللغات وسيلة معاشية عامة للتفاهم على الأشياء المشتركة ، وتلك الأفكار خاصة لا تظهر فى أمورنا المعاشية . وإن كانت هذه الأمور قائمة عليها منبعثة منها . ولا حيلة لنا كى نشرك غيرنا فى تلك الأفكار إلا بالتماثل شبه التام فى التركيب النفسى بيننا وبينه ، فنتبادلها معه صامتين عن قرب وجها لوجه وعينا لعين حينا ، أو عن طريق المشاركة الوجدانيـــة دون تناظر حينا ، وقد نتبادلها عن طريق المشاركة الوجدانية أو التعاطف ولو كان بيننا وبينه ألف حجاب كما يحدث فى التلبانى Telepathy وغيره من ملكات الوعى الكونى(١).

ومن وراء ذلك أغوار الحياة وأغوار الوجود المحيط بكل موجود ، وكلها حافلة بالأفكار السرمدية التى لا مبدأ لها ولا نهاية ، وهذه لا يرف طيفها على خيال إنسان — مهما عظم — إلا أصابه الدوار وأحس كأن بنيانه ينسحق أو يذوب ، وحسبنا أن نستحضر ما كان يكرب بعض الملهمين فى فترات الوحى حين كان يسمع أصواتاً كصلصلة الجرس ، ويغيب عما حوله ، ويتفصد جبينه عرقا ، ويتصبب جسمه

---

(١) انظر كتاب «الله» للعقاد ص ٣٤ — ٥٢ فصل «الوعى الكونى».

بالرحضاء كأنه اغتسل . ولنستحضر الآية الكريمة : « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ـ ما نفدت كلمات الله »

وبالعمق كلمة أفلاطون وما تدل عليه من نفاذ البصيرة، وما تنفجر به من آيات العبقرية « الزمن صورة الأبد » . ومتى وصل الإنسان إلى هذا الحد لم يستطع إلا أن يصغر اللغات وغيرها من وسائل البلاغ جميعا، لأنها لغو إلى جانب تلك الأفكار السرمدية ، بل يصغر معها العقل الإنسانى نفسه ويستخف بدعاواه، ولعل مايكرب « العارفين » ومنهم كبار الصوفية ، ويذهلهم عن كل الظواهر حولهم — إنما هو الشغف الممض والتحرق الملح إلى هذه الأسرار البعيدة .

إن الألفاظ ونحوها هى النقد الذى نتعامل به ، فعلينا أن نعرف قيمتها قبل أن نقوم بها الأشياء ، ولنعلم أنها أداة بلاغ قاصرة إلا عما يطفو على سطح نفس الإنسان ويخالجها، لنتخاطب مع غيره فى شئون المعاش اليومية ، وأن جذور الكلام فى النفس كما قدمنا هى جذور الحياة ، ولكن الألفاظ وغيرها لا تستوعب كل مافى النفس فضلا عن الكون كله ، فالثمرة تتولد من الشجرة وتدل عليها وتحمل خصائصها، ولكنها لاتستوعب كل الشجرة، ولاجميع الأشجار، ولا المنبت القائمة فيه، ولا الحقل كله ، ولا الأرض المحيطة بكل الحقول .

لا بد من تقارب فى التركيب النفسى إلى جانب فهم اللغات ونحوها من وسائل البلاغ ، فأما الأول فقد اختص الله بأمره فليس لأحد حيلة فيه وإن يكن استعداد النفس الإنسانية وقابليتها ومرونتها للتشكل بالصور المختلفة أمور لا تعرف لها نهاية ، وأما الثانى فوسيلته طول النظر والخبرة والتجربة مع مدلولات الألفاظ ذاتها فى النفس والوجود لا مع المعجمات اللغوية ، فإذا لم يكن المدلول قائما فى النفس فلن تفلح فى دعوته ملايين الكلمات . وإذا لم تكن الرموز صادقة الدلالة على مافى النفس فكلها هباء . ولم يحرم أحد كل حظ من عبقرية . وحقائق الأدب فى نفس كل إنسان ، ولكن مشكلاتها أعسر من مشكلات الفلسفة والعلم .

لنبحث أولا فى معجمات أنفسنا عن المدلولات ، ونطابق بينها وبين الرموز التى تدل عليها . وحين يكون المدلول فى النفس قائما فهنا تأتى معجمات اللغة فتسميه ، وتلك فائدتها . وقد تخلو من هذه الرموز فعلينا حينئذ أن نضع نحن لها رمزا فى القالب الذى تسيغه لغتنا ، ونصبه فى قالب من قوالبها كما دربنا عليها طويلا . والرموز لا تقوم إلا بسلطان ، وحسبنا هنا سلطانا قيام مدلول فى أنفسنا ، ولابد من دلالة ،

وعلى غيرنا أن يتعلم ، فإن أبى فذلك شأنه وحده، ولكنه لن ينقص شيئاً من سلطاننا على ابتكار الرموز واستعمالها كما نشاء في حدود ضوابط البلاغ الإنسانية .

فلنبحث — ونحن نقرأ صفحات الأوراق وصفحات الكون — عن مدلولات الكلمات ودلالاتها معاً ، ولنستعن بمعجماتنا النفسية واللغوية معاً . فلن يستطيع أبلغ البلغاء أن يعطيك إلا ما في نفسك وأنت لا تملك إلا ذاتك . ولا ثقة لك إلا بها .

القراءة الصحيحة

ل — القراءة الصحيحة من وسائل الحياة الصحيحة والوسيلة والغاية هنا متصلتان أو هما شيء واحد بعضه من بعض ، وليس مجال الاطلاع صفحات الكتب فحسب بل صفحات الكون أيضاً ، وإنما في الأولى ليس إلا صورة لما في الثانية ، أو هكذا يجب أن يكون ويبدو في وعي الإنسان حتى يكون صحيحا.

إن الله لم يؤتنا الوعي إلا لنقرأ ، ولنحيا بما نقرأ ، ونرى صورتنا في الكون وصورة الكون فينا ونحن نقرأ . ولقد كان أول ما نزل على النبي محمد عليه السلام هذا الأمر الإلهي النابع من أعماق الوجود « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » ولست تجهل معنى القراءة الواضح هنا لأنك تعلم أن النبي كان أمياً ، فعلينا أن نقرأ على طريقة الأنبياء الأميين كلمات الله التي يضمها سفر الكون ، وحسبنا منها ما يطفو من صورها الخفيفة على سطوح أنفسنا أو ما هو دون سطوحها ، ولنغلف تلك الصور بوسائلنا الرمزية من لغات وأنغام وألوان وحركات وأشكال . . .

إن النهج الأمثل في القراءة هو نهج الأنبياء الأميين ، فمن لم يحاول أن يسير على هذا النهج فقد استوفى أكبر حظه من الأمية ، وأضاع أكبر حظه من النبوة .

ولم يكن النبي أول من أمر بالقراءة فهذا — كما تعلم — أمر قديم أمر به الإنسان منذ آتاه الله الوعي ، وهل عمل الوعي إلا القراءة؟ لقد حدثنا القرآن الكريم أن الله « علم آدم الأسماء كلها » ولم يعرف الملائكة سر خلقه ، ولم يتوقعوا منه إلا الفساد وسفك الدماء في الأرض ، فلما عرضهم عليهم وأمرهم أن ينبئوه بأسمائهم عجزوا باخعين بالعجز ، فأمر آدم أن يسمي من جهلوا فسماهم ، فعرفوا حينئذ ما خفي عليهم من جبروت هذا المخلوق الذي استصغروه ولم يتوقعوا منه أولا إلا الشر .

علينا أن ننظر إلى الوجود بعين «الطفل» المقبل على « عالم جديد » نظرة ساذجة لندهش فنتعلم الأسماء ، فالوجود على سعته بسيط منتظم بنواميسه الواضحة ، ولكننا نحن نعقده بأفكارنا الخاطئة ، ونظراتنا العوجاء ، ووسائل تعبيرنا المضللة وسواها

من القواعد والقيود والمصطلحات ، فتحول بيننا وبين المواجهة المباشرة للوجود .

ولن نتعلم الأسماء حتى نتملى الوجود مباشرة بنظرة «طفلية» أو نظرة «آدمية» فلنتعلمها على طريقة أبينا آدم فى مطالعته « العالم الجديد الطازج» ولنقرأها على نهج أبنائه العظماء من الأنبياء الأميين ، فما ترك لنا « آدم » ميراثا إلا هذه الأسماء .

وإن الكون دائما متجدد ، وإن الله ليخلقه فى كل لحظة خلقاً جديداً ، ولولا أنه يجدد خلقه على الدوام لوقف عند صورته الأولى ، بل لانحل نظامه وعاد هيولى كما بدأ . فلنعلم عند كل نظرة أن ما نراه «عالم جديد طازج» لم يكن عند النظرة السابقة ، فهو هو وليس هو معا . ونحن كذلك نتجدد فى كل لحظة . وذلك حسبنا لنرى الكون جديدا فى كل نظرة . و « فى البدء كانت الكلمة » وليس الوجود إلا « كلمات » متجددات .

٢ — هؤلاء العقاد

١ — والناس يزعمون أن العقاد غامض عسير ، وتجربتى تدلنى على نقيض ذلك ، فالعقاد من أوضح الأدباء وأيسرهم منالا ، وما أخذه عندى أنه أوضح مما يجب ، وأدبه كشخصه المنظر انى hand-some ، وشخصيته المكينة وضوحاً وبساطة ، وإن كان واسعا عميقا ، وعلى كل من يزعم غموضاً فى العقاد أن يتناول أى سطر — ولا نقول صفحة — ويحاول أن يعبر عنه بكلام أوضح وأيسر من كلامه هو مع الاحتفاظ لتعبيره عنه بجماله وقوته . سطر واحد ليس غير ، ومن شاء فليجرب ولن يستطيع ولو استعان بكل مسهل .

وضوح العقاد

والمشكلة بين العقاد وقرائه الشاكين لا ذنب له فيها إنما هو ذنبهم ، فالرجل يجد ، وهم يهزلون ، ويعزم وهم يترخصون ، والمشكلة ليست فى غرابة الكلمات لأن المعجمات اللغوية تحلها ، ولا فى أسلوب التعبير لانه واضح يسير . وإنما الصعوبة فى عمق التفكير وجيشان الشعور فى جميع آفاق نفسه ، فمن أراد أن يفهمه فليحاول أن يقارب بين فكره وفكره ، وشعوره وشعوره ، وليس من الضرورى أن يكون مناظره فى كل شىء ، فمن طلب فهم أدب العقاد بغير هذه الأهبة فليلم نفسه دون العقاد .

وأنا هنا أدعى لك هذا عن تجربتى الشخصية ، ولست أزعم لك أنى عبقرى أو نابغة . فمالى حظ أعرفه من عبقرية ولا نبوغ ، ولست متواضعاً فالتواضع من رذائل العظماء المستحسنة عند بعض الناس ، أو هى من فضائلهم السيئة التى يشمئز منها

كل من يشمئز من الكذب والنفاق دون مسوغ إلا تملق الصغار ، فأما العطف على الضعف فرحمة لا تواضع . ولست عظيما فأحمل نفسي محنة التواضع وقد أعفاني الله من دواعيها . بل ربما كانت حاجة مثلي إلى التعاظم أشـــد لفرط ما أحب العظمة والعظماء ، ولكن التعاظم مما يبعد الإنسان عن العظمة ولا يقربه إليها ، وهو آية صغار في النفس لا يبرأ ولا يحاول أن يبرأ ، ولست أدعي البلاء وقد عافاني الله منه .

إنما أنا إنسان عادي من أوسط من ترى من العامة في الكفاية ، أطلب ما أطالع كما أطلب لقمة الخبز وشربة الماء كي أعيش ، لأن القراءة كالطعام والماء من ضرورات الحياة الآدمية ، وقد ركب الله فينا شهوة الاطلاع كما ركب شهوة الطعام والشراب ، إذ خلق لنا وعيا كما خلق معدة .

والكتاب من مجالي الاطلاع ككل ما يضم سفر الحياة ، فالكتاب عندي «مادة حياة» كلقمة الخبز ، وشربة الماء . وأنا أتوخى فيه ما أتوخى فيها أن تكون نظيفة نقية مما يمرضني أو يقتلني ، وأقبل على الكتاب كما أقبل على الطعام في جد وإخلاص طلبا للفائدة والمتعة الطيبة .

وأنت تعلم أن الإنسان منا حريص على علاج جهاز هضمه إذا ساء واختيار الأطعمة المناسبة له ، فإذا تناول ما يعسر عليه استعان على هضمه ببعض الأدوية . ولكن كم منا من يحس مرض وعيه حين يختل ؟ وكم منا يختار من المطالعات ما يقوى عليه وعيه ؟ وكم منا من يحس بعسر فيما يقرأ فيستعين على تيسيره بالسؤال أو معاودة القراءة حالا أو بعد فترة ؟ وكم منا من يتهم مزاجه في حال القراءة ، أو سوء اختيار وقتها ، فضلا عن اتهام وعيه بالقصور أو الاعتلال .

أهون شيء وأرضاه له هو اتهام الكتاب ، لأنه لا يستطيع أن يمد إليه يدا ولا لسانا ، ولأن هذه التهم المخدرة ترضي كسله وغروره وتريحه من الإحساس بالعجز ؛ وهذا الإحساس له في النفس ضربان المغص الحاد في الأحشاء من أوجاع صارعة تهون معها الحياة .

إذن فإلى جرعة من المخدر ، وإلى مزيد منها وإلى ما هو أزيد ، والبلاء باق يستفحل بمرور الزمن مع الغفلة والإهمال ، حتى يقضي على صاحبه . أليس أولى من ذلك أن نلتمس علاج هذا المرض فنستريح ونريح ؟

والحيرة في هذا المرض وكثير مثله من أمراض نفوسنا أننا لا ندري : أمن

النعمة أم النقمة معه أن أكثر المرضى به لا يحسونه ، وهم لذلك لا يحاولون له علاجا ولا تخفيفا ؟ لا ندرى أعدم إحساس المريض بلواه نقمة جديدة تضاف إلى نقمة المرض ؟ أم نعمة تحجب نقمة المرض ، وما وراءه من نقم ؟

من العجب أنك ترى الواحد من هؤلاء الشاكين يعرف لمعدته من الحق ما ليس يعرف لعقله إلا أهونه ، فيلتمس لها ما تأكل ، لأن تركيبه الحيوانى يكرهه على ذلك ، ولا يلتمس الكتاب أو المطالعات الممتعة لمشاعره لأن حظه من الإنسانية ضئيل ، ولو عظم لأحس بالحاجة الشديدة إليه . وكلهم يلتمس أفضل الأطعمة إذا استطاع ويدفع فيه الثمن الجزيل ، مع أن فى الرخيص منه شبعا ، على حين أنه لا يلتمس أفضل المطالعات وهو يطلب ما يفتح شهوته للطعام ، ولا يطلب ما يفتح شهوته للمطالعة .

لقد بدأت أقرأ العقاد على قلة فى نحو الثالثة عشرة من عمرى بل قبلها فلم أحس بالصعوبة التى يشكو منها كثير ممن هم فى مقام أساتذتى حين كنت فى تلك السن أو الآن ، وهى شكوى كاذبة أو مبالغ فيها . كنت ولا أزال حين أعجز عن مسألة أحاول قراءتها مرة ومرات فى أوقات مختلفة ، وما يهون الأمر أنى أقبل على المطالعة بعزم ، وأنى ألفت أسلوب العقاد ، والألفة عون على الفهم . والقراءة عندى عبادة لا بد فيها من تهيئة النفس مع النية والعزم ، أو هى جهاد ، فلا بد من احتمال المصاعب فى صبر ، ولا بد من الاستعانة بكل المعلومات السابقة وحضور الذهن . والمطالعة — كما وصف عمر الخرب — « لا يصلح لها إلا الرجل المكيث ، والإقدام فيها إلا عن بيان ضياع » .

وأرانى إذا عجزت عن فهم شىء اتهمت نفسى فأراجع وأراجع ، أو أسأل عما صعب أو أستعين بكتاب أيسر فى الموضوع ذاته ، وأحاول ألفته ، وما أزال كذلك حتى يفتح الله ، ولا بد من الألفة فى القراءة وكل شىء فى الحياة ، وكلما طالت هونت المطالعة الصعبة وجعلتها رياضة ومتعة ، وعين نصف مفتوحة مع الألفة فى القراءة قد ترى مالا ترى عينان حادتان تستعينان بالمناظير المقربة والمكبرة إلا مع العباقرة وأنا اليوم ألتمس من كتب العقاد المتعة أكثر من المنفعة وإن كنت لا أزال معه ومع كل من أثق به ولو كان دونى سنا أجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه الموقر المحبوب ، وأرانى بعد طول التجارب لا أجد إلا أدنى الصعوبات فى قراءاتى الأدبية بالغة ما بلغت من العسر والجفاف ما دامت واضحة فى ذهن صاحبها ، ولا

أحاول أن أطالع شيئا إلا حاولت أن أشارك الكاتب تجربته كاملة، وأهيء وعي لمعاودتها كأنني هو، وبهذا هانت كل مصاعب المطالعة على.

أما الكاتب الذي يعاظل أو يهول لغموض الفكرة في ذهنه أو لاضطرابها أو زيفها فسرعان بذلك ما ينكشف أمره، والمهم في المطالعة أن يكون للإنسان ميزان من نفسه يزن به الأمور، فإن لم يكن فلا وسيلة للتمييز.

ب ـ هذه الفصول ليست كل «النقد عند العقاد»، فإن له ألوف الصفحات في النقد بعامة والأدبي منه بخاصة، وهي مع ذلك ـ فيما أرى وحدي ـ تعطي صورة تقريبية واضحة لمنهجه وقواعده في النقد، ولقد كان عملي أن قلبت معظم ما كتب العقاد ومنه مؤلفاته وهي تقارب السبعين، هذا إلى مئات ومئات من المقالات في الصحف والمجلات مما تضمه مكتبتي المتواضعة وما اطلعت عليه في غيرها، واخترت أشتاتا من كل ذلك في النقد ولا سيما الأدبي تكاد تبرز معظم المعالم لمنهجه وقواعده، وقسمتها خمسة أقسام فلما فرغت من جمعها وجدتني عاجزا عن أبعثها كلها إليك في رسالة واحدة أو رسائل. لأن أمر ذلك ليس في يدي وحدي، وأنت تعلم لحني وعذري.

عملي في هذه الفصول

فعمدت أراجعها مرة بعد مرة، لأختار ما هو ـ في نظري ـ أكثرها دلالة على نقده، وأجدرها بتسديدنا في عالم القراءة على أن يمثل نقده في شتى مراحل حياته الأدبية، منذ بدأ يكتب حتى الآن، وكانت كل مرة أعسر من سابقتها وأوجع، وكنت أحيانا أقدم فصلا وأطوي غيره دون مرجح قوي.

وكان القسم الأول هو نصيبه (١) من كتاب «الديوان» في النقد والأدب، والثاني هو «رواية تميز في الميزان» والثالث مختارات «من دواوين العقاد» نثراً وشعراً والرابع «مختارات من مجموعات مقالاته» والخامس «مختارات من كتبه» وهي التي يستقل كل كتاب منها بموضوع واحد، ولم يظهر القسم الخامس هنا.

فأما القسم الأول والثاني فلم أتناولهما بشيء من التغيير كما اخترتهما أولا، وكما هما في أصلهما، غير أني رأيت الفصول فيهما طويلة، فعمدت إلى تقسيم كل فصل إلى فقرات، ورقمتها بحروف أبجدية في الجوانب ودسست خلال مبدأ كل

(١) أخرج الأستاذ العقاد مع صديقه الأستاذ المازني جزءين من هذا الكتاب، ولم آخذ هنا إلا نصيب العقاد وكنت ولا أزال أحس كأنني فرقت بذلك بين حميمين، وأرجو أن تتاح لي فرصة لعمل كهذا من نقد المازني ـ رحمه الله ـ تكفيرا عن هذه التفرقة. (انظر هامش ص ٢٥ من هذه الفصول).

فقرة عنوانا مناسبا بحرف دقيق ، فإذا شئت وقفة يسيرة عند نهاية فقرة وقفت ، وإن شئت المضى فى الفصول كما هى فى الأصل لم تعطلك هذه الأرقام الأبجدية ، ولا العناوين الدقيقة المدسوسة خلال مبادىء الفقرات .

وأما القسم الثالث فلم أعمد فيه إلى ذلك إلا قليلا ، وذلك خلال الجزء الثانى منه « الشعر النقدى » إذ رقمت المقطوعات والقصائد بحروف أبجدية ، ووضعت عناوينها الأصلية أو العناوين التى زدتها فيها إلى جانب الأرقام الأبجدية . وكل تغيير بزيادة أو نقص فى عنوان أو غيره خلال جميع الأقسام اشرت إليه فى موضعه ، وقلما تركت عنوانا زدته لضرورة إلا وضعته بين قوسين وأشرت إلى زيادته منى أو اكتفيت بأحد الأمرين ، فكنت إذا اخترت نصا كاملا من شعر أو نثر — فى هذا القسم وغيره — حفظت له عنوانه الأصيل وندر أن عدلت عن ذلك ، وحين أختار فقرة من نص أضع لها عنوانا مناسبا ، ولم أحذف مما اخترت لهذا القسم أولا إلا قليلا .

وأما القسم الرابع فقد اضطررت إلى أن أحذف نحو ثلثى المختارات التى أعددتها له أولا ، وكان الحرج فى اختيار ما أبقيته أعظم من العسر فيما سلفه من الأقسام ، ويبدو أحيانا كأن بعض المختارات يكرر بعضها بعضا ، بل يبدو ذلك أحيانا فى غير ما هنا من آثار العقاد النقدية ، وقد يرى أن هذا مما يساعد على الاستغناء ببعضها عن مثله أو أمثاله ، ولكن هذا وهم عند من يعرف سر الأساليب الأدبية ، ولا سيما أسلوب كل صاحب دعوة جديدة كالعقاد ، ولو أنه وقع — وماهو بواقع فى الفن — لما كان فيه من بأس ، لأن صاحب الدعوة الجديدة مضطر إلى التبشير بها ، وهى لجدتها محتاجة أشد الحاجة إلى التوكيد فى الأذهان ، ومن وسائل توكيدها أنه كلما استلزم مقام عرض جانب منها أو أكثر لم يكن بد من عرض ما يقتضيه منها ، ولكن فى الصورة المناسبة لمقتضاه ، والمقامات لا يمكن أن تتفق فى كل شىء ، وكذلك صور العرض ، وربما تتقارب الصور لتقارب المقامات .

ولكن لا يمكن أن تتفق صورتان ولو تقاربت الفكرة بينهما ، والعبرة فى الأسلوب الأدبى بالصورة جملة لا بالفكرة جملة ولا بأجزاء منها ، وحسبنا أن نرجع إلى أمثل أساليب الأدب الرفيع والبلاغة المعجزة وهو التنزيل الكريم — حين يعرض قصص الأنبياء ولا سيما قصة موسى عليه السلام — فلن تجد صورة تماثل

صورة وتغنى غناءها ، مع كثرة ورود الصور فى مواضع مختلفة من التنزيل لمقامات مختلفة ، كما لاحظ ذلك كثير من أفاضل المتقدمين .

ليس تقارب النصوص النقدية إذن فى كتابات العقاد مما يهون الاختيار بين نص وآخر ، ولو كانت الفكرتان فيهما متقاربتين ، أو كانتا فى الظاهر متماثلتين ، إذ ليست العبرة هنا إلا بالصورة الفنية جميعا ، وإن كان من خصائص أسلوب العقاد تصدير ما يكتب بالقاعدة التى يحتكم إليها فى الموضوع ، وإن قواعده كالنظريات الهندسية دقة وضبطا ، وهذا مما أود أن تراعيه إذ تطالع آثاره ، ومع ذلك تجد أمثلته لقاعدته واتجاهه والصورة العامة — ولو اتحدت القاعدة — تختلف فى كل حال عن غيرها . وإن التمييز بين المتقاربين لأعسر من التمييز بين المتباعدين ، لولا أننى هنا أعنى بالفكرة والقاعدة إلى جانب عنايتى بالصورة والأمثلة :

وهذه هى أقسام الفصول الأربعة التى بين يديك .

وأما القسم الخامس فقد طويته كله بعد أن عانيت منه أشق مما عانيت فى الرابع ، وحسبك أن تعلم أن للعقاد أكثر من أربعين كتاباً كل منها ذو موضوع واحد أحلتك إلى بعضها فى مواضع من الفصول هنا ، وكلها تذخر بالنقد الأدبى وغيره ، وأننى لم أترك كتاباً منها إلا ميزت بعض فصول أو شذور منه ، ثم طويت كل ذلك بعد أن ضنيت فى نقل المختارات ، ثم بذلت جهوداً طويلة للتمييز بينها . وإنما طويتها لعجزى عن إرسالها لك ، وقد رددت خلال ذلك عشرات وعشرات بيتى الصمة القشيرى .

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر ... عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

ج — ليست هذه الفصول كل ما كتب العقاد فى النقد ولا عشره ، ولا تحيط بكل منهجه وقواعده . وهى لا تمثل إلا فى نظرى وحدى صورة تقريبية لمعظم معالمه ، أنا وحدى وأنا وحدى مسئول عن اختيارها وتقديمها وتعليقاتها جميعاً إلا ما أشرت المسئول هنا إلى أنه (عن الأصل) فى الهوامش . ولم أسترشد بأحد فى شأن منها ، حتى الأستاذ العقاد نفسه لم يكن بينه وبينى فى أمرها إلا أن استأذنته فى طبع نصيبه من الديوان وضم « رواية قمبيز فى الميزان » إليه ، ثم استأذنته فى اختيار طائفة من نقده دون تحديد ، فتفضل بالقبول مشكورا ، ثم لم أراجعه فى شىء من أمرها بعد ، وسيراها هو فى هذه

الصورة كأى قارىء لأول مرة — هذا مع قربى منه، وسخائه بالعون لطالبه فى الشئون الثقافية ، وكان هو أولى من كل أحد بالرجوع إليه فى الاختيار لأنه أعلم بمذهبه . ولكنى آثرت الانفراد بأمرى معتمدا على بذل غاية الجهد وحسن النية وطول البحث فى تواليفه أكثر من خمس وعشرين سنة ، فإن كنت أحسنت شيئاً فهو من فضل الله بما ستر من ضعف حولى وحيلتى ، وإن كنت أسأت فأنا وحدى المسىء ، ولا جناح على العقاد — وإن كنت مريده — فيما أخطأت ، فما من أستاذ مهما عظم ولا كتاب مهما وضح يستطيع أن يعطى الإنسان شيئاً إلا ما يستطيع أن يأخذه هو منه بقوته وأمانته معاً . وكم قام فينا أنبياء وأئمة ومصلحون ومعلمون فما استطاعو أن يغيروا من أمور الناس حتى أتباعهم إلا بحسب استعداد كل تابع واجتهاده ، وكم من كتاب حكيم قرأه ألوف فما نال منه كل إلا بمقدار استعداده واجتهاده.

وهذه حقائق الكون أمامنا مكشوفة مبذولة لكل ذى عينين، فهل يحصل منها الصغير ما يحصل الكبير ؟ وهل من ضير على أستاذ أن يخطىء تلميذه ، أو على كتاب أن يعجز عنه قارئه ؟ وصدقت الآية الكريمة « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ولا هداية بغير استعداد وجهاد ، فإن أحدا لا يستطيع أن يعطينا إلا ما أودعه الله فى نفوسنا ، وإن كان يستطيع أن يهذبه و يشكله على حسب قابليتنا للتشكل والتهذيب، وما نبذل معه من جهد ومثابرة على التدريب، وليست الكتب ولا مناظر العالم إلا الصور التى نرى أنفسنا فيها ونراها فى أنفسنا ، فإن لم نرها فى سرائرنا لم نر شيئاً (١) .

فعلينا أن نبحث عن العالم والناس جميعاً فى أنفسنا ففى أغوارها أسرار كل ما يحيط بنا . ألم يأت فى التنزيل « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، كما قال السيد المسيح لتلاميذه « ملكوت الله فى قلوبكم » ؟ فنحن الذين نصنع أنفسنا بعناية الله على حسب ما وهبنا ، وإن فضله فينا لأعظم مما يبلغ وهم، ولكننا نحن نكسل ونتقل ونلقى ذنوبنا تارة على السماء وتارة على من حولنا ، وإنا لنحن المسئولون ، وما ظلم الله الناس ولكن أنفسهم يظلمون .

وما دام ملكوت الله فى قلوبنا فدولة كل أديب كالعقاد وغيره، بل صورة كل إنسان فى العالم إنما هى جزء ضئيل فى هذا الملكوت الذى ننطوى عليه. والحياة ليست

(١) انظر رسالة « النساج فى الإسلام » لكاتب هذه السطور — ص ٤٢

ظرف زمان ولا ظرف مكان، ولكنها تحقيق ذات بما تفجر من قواها المستمرة في طواياها ، فلنبحث عن أدب العقاد ونقده في أنفسنا وكلامه معا .

و ــ لقد استطاع العقاد بأدبه ونقده وشخصيته أن يقوم الأدب و«يقيمه» فأما التقويم فبما وضع له من منهج وأصول تضبط أموره فلا يختلط على الناس حلاله وحرامه وعزائمه ورخصه ، وأما «التقييم» فبما جعل له من «دولة» بين سائر الدول ، وأبان أنه كرامة إنسانية كأسمى ما تكون كرامة لإنسان في أي مجال حيوي، وجعل الأديب «سيداً ملكاً» بين أعاظم «السادة» بعد أن كان عبداً لكل سيد وكل عبد غيره. ونشأ في عصر الألقاب والإجازات بغير لقب ولا إجازة فبلغ الذروة التي تحسر عنها عيون كل ذوي الألقاب والإجازات عن جدارة أو غير جدارة عندنا وعند كثير غيرنا ، وكان ذلك محنة لهم ، ولست أدري أمصادفة أم تدبير أنه نشأ كذلك هو والجامعات عندنا في وقت معا ، وجاء في عصر العجب بالمنصب والأسرة العريقة والثروة الضخمة فبلغ من المكانة الاجتماعية بغير شيء من ذلك مالم يبلغه أكابر أصحابها . فكان حجة على كثير من الناس والأمور وميزانا لها ، وكان هذا ألزم لوازمنا ونحن نتهيأ لعصر الديمقراطية .

تقويم وتقييم

وقد انتفع بهذه «السيادة» وبهذه الشريعة كثير من أهل الجيل الذي سبقه وعاصره أخيراً كشوقي وحافظ ومطران ، كما انتفع بهما كل ذي قلم معه أو بعده ومع ذلك لم يلق من مناوأة بين الأحرار والعبيد في «الدول» الأخرى كما لقي من مناوآت الذين حررهم وجعل من الأدب دولة لهم ذات سيادة معترف بها بين جميع الدول التي تحبها وتكرهها . وقد كان الاجتراء على الباطل قبله كفرا يهدر الدم ، فأصبح الاجتراء بالباطل على حقه هو أمراً يسيرا لا ينكر ، وإذا أنكر فبالتربيت مع الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن . وهذه بلية قديمة ، إذ ما قامت نهضة إلا بكفء ، وما أفلحت إلا هب الأدعياء يبغون لأنفسهم مثلها بعد أن زالت العوائق ، وحيثما ظهر الأنبياء ظهر المتنبئون ، أو ظهر المسحاء الحقيقيون ظهر المسحاء الكذبة . وما راجت سلعة في سوق إلا هب الأشرار لتزييف مثلها لأنها مطلوبة وقليل من يميز الزائف من الصحيح في السلع والرجال .

هـ ــ لست أقدم لك هذه الفصول طائفة متفرقة من المعلومات أو التوجيهات أو الحكم فحسب ، كي تزداد علما أو هداية أو حكما ، وإن كانت تكفل كل ذلك ، بل أقدمها مجتمعة وحي روح لروح وفيض نفس لنفس، أو «منهج حياة» تجربه

بنفسك ، انرى ذاتك والكون حولك فى سريرتك على نحو جديد خلال هذه التجربة ،

رسالة حياة

بل أقدم لك «مادة حياة» يمتلىء بها وجدانك وتسرى فى جميع كيانك لتجد ذاتك والكون من حولك فى صورة جديدة وأنت تحياها وتحيابها .

هذه بضعة من نفس العقاد تخضلة بدم فكره ومهجة قلبه فى أحيا لحظاتها وأشدها وعيا لذاتها ، وأحفلها بالمشاعر والأفكار التى تسرى من جذورها الضاربة فى أغوار الحياة والوجود كله . فمن الخير أن نتقبلها «رسالة حياة» ونمكن لها أن تنتشر فى كياننا وتنبض بها وجداناتنا ، كما نبض بها وجدان صاحبها ، وتهش لها جوانحنا كما هشت لها جوانحه . ولنأخذها وحدة كاملة لا أجزاء متناثرة . فإنها رسالة حياة واحدة نبعت من قريحة واحدة ، وإن تكن كتبت خلال أربعين سنة .

(إن العقاد لا يقدم إلينا من الأفكار ما تعارف عليه الناس أفرادا وجماعات ولو كان حقا ، ولا ما يصدقه فكره من مقررات غيره لما قام عليه عنده من صادع البراهين المنطقية ووكدته الملاحظات والتجارب العلمية ، ولا يقدم إلينا الفكرة من مبتكراته وليدة يومها ولو أيدها ألف برهان منطق وألف ملاحظة وتجربة علمية . إنما تنبت الفكرة فى قريحته بذرة ، ثم تنشب جذورها فيها كالجنين فى مستقره ثم تتصل أيامها بأيامه ، وتمتد سيرة حياتها مع سير حياته ، وهى خلال ذلك تتغذى بكل ما يتدفق به وجدانه من إحساسات وأفكار وعواطف وأخيلة وكل ما يعتلج فيه من هموم وأشجان ، وتنضج بما يرأمها به من عطف ورعاية ، ولا تزال تنمو وتكبر ، وتنتقل من طور إلى طور ، معانية كل ما يعانيه من مواجد ، متعرضة لكل ما يتعرض له من حظوظ ، مترقية فى تركيبها وتنسيقها حتى يكمل نضجها ، وتتأدى إلى غايتها بين أخواتها كى لا تشذ عن ناموسها العام ، ثم تأتى المناسبة عن أى طريق فما هى إلا إشارة يسيرة بعد مراجعة عاجلة قصيرة حتى يتم ميلاد الفكرة فى صورتها الأخيرة . يقول : «لو أن للخواطر يوم بعث ترد فيه إلى منشئها لخلت أنها ستبعث معى فى جسد واحد يوم ينفخ فى الصور الموعود ، أو لعادت معى حيث كنا فى الحياة ولو كان لها ألف شبه يربطها بآراء المرتئين وكتابات الكاتبين ، فإنما أنا قد عشتها وغذوتها فلا أتخيلنى قائما بغيرها ، كما لا يستطيع أحد أن يتخيل جسده قائما بغير أعضائه ، أو يتخيل رأسه ويديه وقدميه وسائر جوارحه راجعة — يوم القيامة — إلى جثمان غير جثمانه » .

ويقول « ... إننى لا أحسب تفكير الإنسان إلا جزءا من الحياة ونوعا من الأبوة ، فليس يسرنى أن تنمى إلى أفكار كل من أقلتهم هذه الأرض من الأدباء والحكماء والعلماء إذا كانت غريبة عنى بعيدة النسب من نفسى ، كما ليس يسرنى أن

ينزل لى كل من فى الأرض عن أبنائهم و بناتهم، ولو كانوا أبناء سادة أو ذريه ملوك»(١).

أرأيت إذن أنه من الخير لنا ولها أن نتلقاها «رسالة حياة إنسانية ممتازة» نحياها معها، ونحيا لها ونحيا بها؟ وأن من واجبنا لأنفسنا ولها أن نعرف لها حقها فلا تأخذها إلا به، ولا نقدمها لأحد حتى يؤدى لها حقها من القوة والأمانة، ويكون كفئا مخلصا لها. وأن تصد عنها الصعاليك المفاليك الذين لا يقنع أحدهم فى التأهل بما دون «بنت السلطان» وإن لم يكن حظ من حسب ولا نسب ولا أدب.

أو ليس من واجب الوزراء الذين يشاركون السلطان مسئولياته، والأحرار ذوى الأعراض المصونة الذين يحسون ما يحسه — أن يباركوا اعتزازه واعتزاز بناته بكرامتهن، لأن هذا الاعتزاز قدوة لكل ذى كرامة أن يعتز بكرامته، وهذا محور الحق والشرف والجمال والنظام فى كل دولة. ألا فلتعلم يا صاح علما ليس بالظن أن السلطان لا يبتذل بناته أو يبتذلن للصعاليك المفاليك فى دولته إلا حين يكون قد فقد عزته وشرفه وسيادته، وآذنت دولته بالزوال. وأن ذلك لا يكون فى أمة وترضى عنه إلا كان ظهوره عنوان اضطراب موازينها وابتذال القيم فيها، وهوان حياتها كلها. ويا بعداً لحياة مهينة تبتذل فيها القيم.

لقد بلغت بى المحنة مع العقاد أنى حين أطالع ما يكتب أو أسمع صوته فى الراديو أو فى مجلسه — أعاطفه حتى كأنه لا يعنى غيرى وقراؤه عشرات الألوف، وسامعوه ملايين

وإن هذه المختارات — ككل عمل أدبى فنى — بلاغ عن تجارب شعورية عانتها نفس إنسانية ممتازة فى أعظم أوقاتها حياة ويقظة — ولو ظهرت للناس ساكنة حالمة — وهيهات أن نحيط بها خبرا حتى تجيش مشاعرنا بمثل ما جاشت بها مشاعر صاحبها، ونعانى التجربة التى عاناها كما عاناها، أى أن نكون إياه، أو نكون نحن هو خلالها، وكما نجد ذلك يكن تذوقنا لما فى الأعمال الأدبية والفنية — وكل الأفعال والأقوال الوجدانية الإنسانية — من إحساسات ومعان وصور، وبغير هذه المشاركة الوجدانية الكاملة أو شبه الكاملة فى أى قول أو فعل إنسانى المعاطفة باب الفهم — ولاسيما الأعمال الفنية — لا نستطيع تذوق أمر منها ولا فهمه ولا الحكم عليه. فلنجد أمور الناس وأمور الحياة كما يجدونها ونغمس أنفسنا فيها أو نملأ بها طوايانا قبل أن نحكم عليها، وإلا فنحن عنها بعيدون، وفى الحكم عليها مخطئون.

(١) مقدمة مجموعته «مراجعات فى الآداب والفنون»

ليجد الإنسان وجد الطفل — ولا يكتفى بملاحظته وحدها — وهو يراه يقيم الدنيا ويقعدها من أجل شظية من حلوى ، وليجد وجد الأم الثاكلة وهى مذهولة اللب مصدوعة القلب لموت طفلها ، وليجدو جد القديس أو القاضى أو الشرطى أو اللص ، أو القط أو الأسد أو الثعبان أو الدودة الصغيرة أو غير ذلك من هذه الموجودات أعلاها وأدناها — ليجد وجدها أولا ثم ليحكم عليها بعد ذلك ، وليس إنسان من الناس إلا وهو الطفل والقديس والمرأة والرجل والقاضى والشرطى واللص والقط والأسد والثعبان والدودة الصغيرة وكل حى فى الوجود وهو العالم والفيلسوف والفنان والرياضى والمتصوف وكل حى ذى امتياز وهو مع ذلك مستقل بمزاياه لا يشتبه بغيره . على الإنسان أن يفتش فى سريرته عن هؤلاء جميعاً — فسيجدهم فيها قائمين ، وما عليه إلا أن يدعوهم بالكلمة السحرية ليلبوه ، ولكن عليه أولا أن يعرف كلمة السر ؟

هكذا يجب أن نجد الناس والأشياء ، وهكذا يجب أن نجد الأعمال الأدبية الفنية ومنها هذه المختارات ، والناس يخدعون أنفسهم وغيرهم حين يضيفون العقاد إلى الفلاسفة ليخرجوه من صفوف الأدباء أو الفنانين ، وليس معنى ذلك أن العقاد ليس فيلسوفا ، وله مكانه كما سأبين ذلك فى رسالة أخرى ، ولكن حسبك أن تعلم أن فلسفته مع ذلك فلسفة شعرية منغومة كأنها بعض رقصات « الباليه » الفلسفية ، هى فلسفة وهى رقص فنى معا ، فمن اقتصر فى معرفتها على تواليفه الفلسفية وحدها لا يعدم كثيرا من مزاياها ، ولكن لا يجدها منغومة كما يجدها فى دواوينه الشعرية ، ومن أراد أن يعرفها فى صورة أيسر وأخصر وأبهج فليلتمسها فى رسالته الصغيرة الأسطورية « مجمع الأحياء » كى يعرف بعد ينابيعها ، وأجمل مزاياها ، ويعرف أن العقاد كون مذهبه وهو فى ريعان الشباب . وأن فلسفته « رسالة حياة » لا إفراز عقليا جافا .

وقد أشرت بعد إلى أن هذا العقاد أو هؤلاء العقاد مزاج من الشاعر والفيلسوف والرياضى والعالم والرائى ، ولكن شاعرية العقاد هى سلطان هذه الجماعة ، ورئيس هذا البرلمان من الكفايات الذى يهيمن على أمرها ويمدها جميعاً بنشاطه وإن كان يعول عليها كما تعول عليه دون عدوان ، فلكل منها حظها فى كل عمل بالقدر اللازم ، وقريحته عالمية شاملة لا تقبل التخصص .

ويبدولى أحيانا أن النماذج البشرية أو الحيوية كالحروف الهجائية أو كالعناصر المادية محدودة ، وإن كانت تراكيبها بلا نهاية ، وهى فى ذاتها بسيطة ، ونواميسها التى تضبطها وتقدر أمورها بسيطة أيضاً ، ويبدولى وأنا أقرأ العقاد أنه يعرف بعض تلك الحروف واتجاهاتها ، ولذلك فهو يعرف ويحدس كثيراً من تراكيبها بأدنى جهدو يقرأ كلماتها بأدنى نظر ، ويفطن إلى صحائحها وتصحيفاتها من أجل ذلك كما يفطن القارىء اللبيب من سياق الكلام إلى مافى الألفاظ من سلامة وخلل .

وأحب لك هنا أن تنظر إلى الأشياء مباشرة وجها لوجه وتتغاضى عن العناوين والمصطلحات ، فإنها ضلال ، وهى مشتركة بين أشياء بينها من الاختلاف أحيانا ما بين الأضداد والنقائض ، وأن تنظر فى نفسك إلى الشاعر والفيلسوف والرياضى والعالم والرائى والمتصوف وغير ذلك فتراها فى أعماقك فيضاً واحداً وإن اختلفت منابعه وودیانه واتجاهاته بعد ذلك ، ومن هنا اختلاف العناوين والأسماء .. ولتعلم أنك «الإنسان» كله ، وأن كل عمل إنسانى لايقوم على فطرة الإنسان ، ولا ينبع من مواجدها الواقعة فهو قائم على هواء ، أيا كان سلطانه أو اتجاهه أو مجاله فى حياة الإنسان

دعوتك إلى أن تتلقى هذه المختارات «رسالة حياة إنسانية» ممتازة خاصة ، فمن استطاع أن يتلقاها كذلك فهو أقرب إليها ، ومن وقف به جهده ، فلم يجدها إلا طائفة من المعارف أو التوجيهات أو الحكم فلا ضير عليه ولا عليها ، ولا نكران لحقه فيها ما دام مخلصاً فى أن يحيط بها خبراً . والأمل فى تقدمه غير يسير ، وحسب المخلص هذا الحظ من الكفاية لما يطلب حتى يكون من بعض أهله ، فمن طلبها حباً للعلم أو الهداية أو الحكم فهو من «القارىء الصديق» ، وما آثرتك برسالتى ضنا بالخير على أحد فيه نفعه ، بل صيانة للحرمات أن تبتذل لغير مسوغ إلا تمليق الصغار والحيوانية . ورحم الله الغزالى إذ دعا إلى «إلجام العوام عن علم التكلم» .

وما أبعد الفرق بين من يفرغ لنا دم قلبه على القرطاس لتنقله إلى عروقنا فيزيدنا قوة وحياة ، ومن يفرغ لنا مداد محبرته فإذا أجريناه فى عروقنا لوث دماءنا وعرضها للتحلل أو التخثر أو التسمم ، وكان خيراً له ولنا لو أنه أبقى المداد فى محبرته ، أو سكبه على الأرض ، فربما يصادف شوكة فى تربة ظامئة فتحيا به لأن النبات يمثل مالا نمثل ، وإن أذى الشوك دون أذى هذا الكاتب ، أولا يصادف إلا التراب وهو أولى به من تسويد الصحائف . ذلك دم قلب يجود به صاحبه

ز — إن العقاد صاحب هذه الفصول أديب كبير يأخذ نفسه بعزم الأمور فى أدبه وحياته معاً . لا يعرف الترخص ولا يحسنه ولا يشتهيه ولا يحتمله فى أدبه وحياته معاً ، وقد يبدو حينا أنه يترخص . ولكننا إذا تدبرنا الأمر وجدنا أن النفس الانسانية رخصه فوق عزائم غيره . عشق الأدب كما لم يعشقه أديب فى العربية منذ كان لها أدب ، ولذلك رضى به حظا من دهره وهو مختار ، وقل أن تجد بين أدباء العالم قديماً وحديثاً من يضارعه فى غرامه به ، وحرصه عليه ، وجهاده فى سبيله ، بل ندر أن تجد فى تاريخ العشاق من تدله فى عشقه لمحبوبه ، وإخلاصه له ، ووفائه بعهده ، وتضحيته من أجله ، مثله هو فى عشقه الأدب .

أديب

إنه يعشقه كما يعشق النبى أو الصوفى العارف ربه ، ولذلك رصد له حياته ، واتخذه وحده رسالته التى يبشر بها وينظم شريعتها وينافح عنها ، ويستمدمنها الوحى فى كل همسة بكل ماتنطوى عليه سريرته من ينابيع الحياة وأسرار الوجود ، ولذلك لا تخطىء بسطة أدبه وعمقه ، وغزارته وتنوعه ، وأصالته وجلاله .

وقد حدثتك هنا غير مرة أن حياته هى أدبه ، وأدبه هو حياته ، فقلما تجد فى حياته عملا أو اتجاها إلا وجدت له باعثا أو غرضاً أدبياً ، ولقد قنع من الدنيا به ، فعاش من أجله ملكا فى سمت قديس ، وقديسا فى عزة ملك ، وأدبه معرض كامل للنفس الإنسانية على اختلاف أزيائها واتجاهاتها ومراحلها ، معرض لكل ماتنطوى عليه من أسرار ، وما يعتورها من أطوار ، وما يتبدل عليها من قوة وضعف ، وإيمان وشك ، وزهد وبطر ، ورحمة وقسوة ، فهو كما قال فى وصف ديوانه :

هذا كتابى فى يد القراء ... ينزل فى بحر بلا انتهاء
فيه من الحكمة والغباء ... وفيه من يأس ومن رجاء
وفيه من حب ومن بغضاء ... وفيه من صمت ومن ضوضاء
صورة محياى لعين الرائى ... فليلق بين القدح والثناء
ما شاءت الدنيا من الجزاء

إنه حين يكتب ليغمس قلمه فى قلبه ، وما الدم الذى ينبض به هذا وذاك إلا قطرات من تيارات الدم الكبرى التى ينبض بها قلب الحياة لتمد به أسباب البقاء لكل حى من أبنائها ، وليست تلك التيارات على عظمها وامتدادها إلى كل حى إلا مايتلاطم على سطوح الوجود من تيارات أشد وأعظم . وفى أدب العقاد ترى كل ذلك ، لأنه انسان كبير يسكب دم قلبه حين يكتب ، فأدبه كله « رسالة حياة إنسانية شاملة » . .

ح ــ ومن آيات أخذه نفسه بعزم الأمور فى حياته وأدبه معا ـ أنه يحتفل للصغيرة فى هذه وتلك كما يحتفل بالكبيرة، وما من شىء يمضى هنا وهناك إلا على وفق خطة مقدرة، وهو يكره الترخص ويتحاشاه. ولا يضب عليه فى كتابته ولا فى سيرته.

عزم الأمور وحياته وأدبه كالجسم وصورته، والماء ونضحه. سيان ما تحصل أو الباب الضيق عليه حين تقرأ أدبه وما تحصل عليه حين تطلع على حيـــاته إن بمعاشرته أو تدبر ما يصلك عنه من صحيح الأخبار أو التفرس فى صوره.

أدبه صورة حياته، أو صورة ما يعنى الإنسان من حياة إنسان مثله. سئلت السيدة عائشة عن خلق النبى عليه السلام فقالت: «كان خلقه القرآن». وهذا التطابق بين إيمان الإنسان وسيرته من أكبر آيات القوة والصدق والجمال فى كل عظمة إنسانية. وهو «عزم الأمور» بلغة القرآن أو «الباب الضيق» بلغة الإنجيل، إذ لا يصبر على محنه ولا يطيق النهوض بأعبائه الفادحة إلا أولو العزم من العظماء. والمؤمنون كثير، ولكن «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» كما قال أقوى المؤمنين. ولا يفوت مثلك فى فضله أن يرى منهج العقاد فى الأخذ بعزم الأمور، فى اختيار موضوعاته، وشعوره بها وتفكيره فيها، وتعبيره عنها.

فهو يختار من الموضوعات ما يتحاشاه غيره، وقد يختار موضوعا اختاره غيره قبله أو بعده، فتراه يقتحم أمنع جوانبه التى لا يغرر غيره بنفسه فيجترىء على اقتحامها، وهو يذلل صعوبات هذه الجوانب المنيعة بأيسر جهد كما يذلل الجوانب المفتوحة. ولذا تجد فى كتاباته من هذا وذاك ما لا تجد فى كتابات أحد غيره من شيوخ أدبائنا وناشئتهم، فمن أمثلة تفرده بموضوعاته تفرقته فى بواكير شبابه بين الجمال والجلال كما ترى فى هذه المختارات(١)، وأحاديثه عن الفنون وأهمها كالتصوير والتمثيل والرقص

إلى المحكمة . . . ثم السجن تسعة أشهر
لمحاولته على الملك فؤاد حين عبث بحرية المصريين

(١) هو الأديب الوحيد الذى كتب فى هذا الموضوع Aesthetics .

والموسيقى والغناء ، والحملة الموفقة على شوقى فى وقت كنت فيه الأفواه إلا عن الثناء عليه ، ووضعه «هتلر فى الميزان» وتنبؤه بسقوطه وهوفى أوج سلطانه ، ونبوءاته الكثيرة الصادقة بالأحداث ، ومنها نبوءته بمصير تركيا على الصورة الكمالية قبل موقعه باثنتى عشرة سنة. وبآثار زواج ـ ثم بعد معارضته الملحقة له ـ فى إفساد الحكم فى مصر بل أن تظهر هذه الآثار بنحو ثمانى سنوات، ومن مفرداته أخيرا «عبقرية المسيح» . وهذه أمثلة من مئات سوف يلقاك بعضها فى المختارات ، ومن أمثلة تفرده باقتحام جوانب عسيرة لم يجترىء عليها غيره ـ فضلا عن أن يفلح فيها فلاحه ـ معظم سيره ، وعبقرياته، فما أكثر من كتبوا عندنا قبل العقاد وبعده عن محمد والصديق وعمر وعثمان وعلى وفاطمة الزهراء والحسين وعائشة وخالد وعمرو وغاندى وابن الرومى وأبى نواس. . . ولكنك لاتجد «الصور النفسية» لأحد منهم إلا عند العقاد دون غيره . وإذا بحثت عرفت شواهد ما صدقتك فيه .

ط ــ ثم هناك عزم الأمور فى علاج موضوعاته فهو لا يكتب الفكرة حتى تحملها قريحته حمل الأم جنينها كما حدثتك آنفاً ، ولا يكتب عن إنسان إلا على هذا النحو أيضاً ، فيدخل معه فى إهابه، ويتلبس به، ويتشكل بشكله، ويحيا حياته، فيقف على أسراره من داخل نفسه هو، لا من مجرد أخباره وأقواله كما يعمل صغار المؤرخين وكبارهم على السواء. ومن هنا تتحرك أمامك شخصية العقاد وشخصية من يكتب عنه معا فى إهاب واحد، وهذا ما خفى على نابغتنا الدكتور طه حسين فى نقده «رجعة أبى العلاء» للعقاد كما ستعلم بعد .

خلقه شخصياته

وما من عبقرية من عبقريات العقاد إلا وهى قصيدة شعرية ينقصها الوزن والقافية ، ولكن لاينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير ، بل لاينقصها التنغيم النفسى الذى يكاد مع توهج الشعور واتساق العواطف، وإيقاع الجمل ــ أن يدفع الإنسان إلى التغنى بها والرقص على انتظام أنغامها فى النفس، ومن أظهر عبقرياته فى ذلك «عبقرية محمد» و«عبقرية عمر» و«عبقرية الإمام»، فأنا مع ما أعرف فى نفسى من جلد على الشدائد وكظم للمواجد ــ لا أكاد أقرأ فى واحدة منها ولاسيما وسطاها حتى أجد ينابيع الشعور فى جميع أقطار نفسى تسيل وتدوم بالعواطف المختلفة ، وأغيب خلالها عن الوجود كله، ثم ألتفت فإذا أنا مغالب غصتى بالدموع، ومغلوب على أمرى، وكأن نشوة وحرقة مادية تعتلج فى صدرى وقلما استطعت المضى فيها إلا بأعنف

الجهاد مع تحرق الرغبة فى المضى، فكأنها حميا الخمر — فيما يروى شرابها المدمنون — تصرعهم فلا يفيقون إلا ازدادوا ظمأ لها ليرتدوا إلى الغيبوبة، أو كما قال الأعشى :

لا يستفيقون منها وهى راهنة إلا بهات وإن علوا وإن نهلوا

وأفدح سيره عبئا على النفس — حتى تكاد تذيبها أو تحرقها — كتابه أو ملحمته «أبو الشهداء : الحسين بن على». فما أرى هوميروس لو تولاها بعبقريته — على نهجه الشعرى فى الملاحم — قادرا على أن يخرجها كما أخرجها العقاد، فكشف فيها عن بطولة لم تشهد البشرية أوجع ولا أكرم منها حتى فى الأساطير.

وكأن العقاد كتبها بدمه ليوفى هذا الشهيد حقه من البطولة. ولولا ما أعرف من بالغ عطفه، وقدرة الفنان على مواجهة الجمع المحن فى خياله، وأن أداء العمليات الفنية ضرب من الانتحار، وأن العبقرية قدرة على التشكل فى حرب

إذا ما نبت العبوسة فى امرىء فلا تلحه، واسأل سؤال حكيم
لعل طلاب الخير سر انقباضه وعلة حزن فى الفؤاد مقيم
قطوب كريه خاب فى الناس سعيه أحب من البشرى بفوز لئيم

دائمة — وليس فى ذلك مايدل على قسوة — لولا ذلك كله لاتهمته بالقسوة، فإن الإنسان ليحس فى مطالعتها بما يحس المحموم حين تطبق الحمى عليه بأزماتها العاتية، وتذهب به الثورة فى هذا الحلم المدمر بكوابيسه الرهيبة إلى أن يتفقد سلاحه فيمضى إلى الميدان ليدافع بروحه عن هذا الدم الزكى قبل أن يطار فى معركة كربلاء،

ويحس باللعنة تمتد إليه منها خلال القرون على أنه لم يبل بدمه فى يوم كربلاء. ويعجب كيف لم تهاو رجوم السماء أو تخسف الأرض أو تتطاير صخورها أو تسفى رمالها على أعداء الحسين ، وقد يرتج الضمير فيبدو له كأن العناية قد غفلت عن الأرض فى لحظة مقتله .

ومن خصائص كتابة العقاد أنه لا خطر لأخبار من يكتب عنه إلا باعتبارين: أن تدله على مداخله ، فينفذ منها إلى أغوار سريرته ، فيحيا معه داخلها ، أو يحييه هو داخل نفسه ، ثم أن تكون أخباره المادة التى يركب منها «صورة نفسه» عند الكتابة عنه ، وكذلك أحداث العصور التى يتناولها فى كتابة سيره وغيرها ، فهى منفذه إلى الحياة فيها ليحيا خلالها أو ينقلها داخل نفسه فيحييها ويحيا خلالها ، ثم يصور العصر من أحداثه . وأشير هنا إلى مثلين معجزين هما كلامه عن المقوقس فى كتابه «عمرو بن العاص»(١) ، وعن النبوة ومدن القوافل فى كتابه «أبو الأنبياء»(٢) ـ وعن هذا الطريق يستولد صور رجاله وعصورهم ويشتقها من داخل نفسه لا من مجرد استعراض آثارهم كما أشرت إلى هذا المنهج فى كلمة حييته بها فى عيد ميلاده الستين(٣) ، ولهذا السبب ولأنه ينظر إلى موضوعه نظرة شاملة تكشف له أسرار تركيبه وهندسته ، وتدله على ما فيه من زيادة ونقص ويتنبأ أحيانا فتصدق نبوءته لأن هذه النبوءة نتيجة قياس صحيح عن نظرة شاملة بجملة وإن تم فى الباطن . ومن أجل ذلك كان أولى آثار أى إنسان أو عصر عنده بالتقديم ما مكنته من النفوذ إلى طواياه ثم تركيب صورته النفسية منها . ولا قيمة لشىء عنده إلا بهذا الإعتبار ، وهذا هو منهجه «النفسى» الشعورى الفنى فى الأدب والنقد والبحث والشعر والقصة كما سيأتى :

(أعاصير مغرب) (٤)
ثم (بعد الأعاصير)

ومما يزيدنا علما بعزم الأمور عنده فى هذا الشوط من منهجه ويطرد مع ما أسلفنا ويؤيده ، ويتفق مع شخصيته ـ أنه يعمد مباشرة إلى موضوعه فيستوعب فى قريحته أهم معالمه متحاشياً تفصيلاته وحواشيه ، ثم يرتب ما استوعب فى نظام خاص

---

(١) ص ١٠٩ (٢) ١٦٩ (٣) جريدة (الأساس) ٧/٧/ ١٩٤٩
(٤) هذان عنوانا ديوانين للعقاد

يمثل فكرة معينة ، فيضع كل جزء فى موضعه بحيث يمثل وهو فى هذا الموضع — مع سائر الأجزاء — الفكرة المقصودة من النظام كله بجميع مقوماته ؛ وهو خلال ذلك ينضجه فى قريحته حتى يبلغ تمامه كما أسلفنا ، وعلى هذا يجرى فى كل عمل من أعماله صغر أو كبر ، ومن هنا «الوحدة الفنية» فى كل كتبه وقصائده ، وهى فى الأخيرة أظهر ، ومن هنا دعوته إلى وحدة القصيدة سنة ١٩٠٨ ، بل إن الحياة والكون كله عنده « وحدة فنية كبرى » كما سنرى .

لباب العبقرية

ى — ومن آيات عبقريته وأساليب لعبها اختلاف هندسة كل من تواليفه عن هندسة غيره ، مع اتحاد طرازها الهندسى . و«الهندسة العقادية» لا تخفى على عارفيها فى كل بنية من بناه ، لا فى أجزاء البنية ولا بمجموعها . ومن ذلك فى فصولنا نقده لشوقى ، فما من حلة على قصيدة إلا ولها تعبئتها وأسلحتها الخاصة بها دون غيرها .

وما العبقرية ؟ إنها القدرة على التشكل بأنماط مختلفة ، وما كان أفطن الأقدمين حين نسبوا هذه القدرة إلى الجن التى تتقلب من صورة إلى غيرها دون أن تفقد خصائصها ، فيكون الجنى إنسانا معينا أو حيوانا معينا أو شجرة أو صخرة أو سحابة ... وولع العقاد بالأسرار عامة واضح فى آثاره ، وللجن والأساطير فى دولته الأدبية العظمى قطر واسع لا يوجد مثله فى دولة سواها عندنا .

إنه ليتمكن من ملابسة الأشخاص والفكر ، ثم التشكل بها مع الاحتفاظ بكل خصائصه المكينة ، والمحافظة على كل خصائصهم معا ، فهو ومن يكتب عنه يعيشان متصلين فى إهاب واحد كأنهما جسم حى فتى واحد ، وهما مع ذلك روحان منفصلان كل الانفصال ، وبينهما من حكمته برزخ لا يبغيان . ولذلك كانت خصائصه تتموج خلال خصائص من يكتب عنه وما يكتب عنه دون أن تغير منها إجمالا ولا تفصيلا . ومما مكنه من ذلك أيضاً ثقافة واسعة ندر أن ظفر بها قارئ فيما يخطر وما لا يخطر ببالك أن يلم به من الموضوعات ، وهو ذو عقل موسوعى لا يقبل التخصص ، ولولا أن من الإساءة وصف تواليفه السبعين وغيرها بأنها موسوعة Encyclopedia لعدت كذلك ، ولكنها «رسالة حياة فنية» تعبر عن شعور صاحبها وحده ، وليست سرد معلومات كما هى سنة الموسوعات ، ولذلك كان أكبر من عرفت العربية إنتاجا دون استثناء ، وعلى من يوازن بينه وبين المكثرين كالطبرى أو فريد وجدى مثلا أن يلاحظ أن آثاره هو من قريحته وأنه لا يكتب شيئاً إلا

ما أحسه فى نفسه وطبعه بخصائصه . ولكن المكثرون ينقلون عن غيرهم ، فهم مؤلفون أو مصنفون (١) بالمعنى القديم وليس كذلك شأن العقاد .

ودليل معرفته الواسعة تواليفه السبعون، وجوابه عن كل سؤال، وهو يفضل أن يقترح عليه(٢) موضوع كتابته، فذلك أيسر عليه من أن يختاره هو : فشعاره « اطلب تجد » ، و« اسأل تجب » وكأنه يردد كلمة رجل على طرازه فى الفتوة وهو «الإمام على» حين صاح على منبره «اسألونى قبل أن تفقدونى . . » وهذه كتلك آية التمكن والشجاعة والصراحة والثقة وعدم التكلف والنهوض بالمسئولية والتعويل على النفس وحدها وكلها من شمائل «الفتوة» أو الفروسية كما سنرى بعد قليل.(٣)

اسألونى (٣)

وإلى جانب هذه المعرفة الواسعة — سعة فى آفاق نفسه ، وجيشان كل أفق منها بالشعور والعواطف ، ثم فطنة نافذة إلى الجمال الساذج البسيط والحقائق الدقيقة اليسيرة ، وعمق فى الفكر يستوعب ويعلل كل ما تجيش به نفسه وتتأدى إليه فطنته النافذة، ثم يأتى أسلوب التعبير مفصلا على قدر ذلك كله. فيتدفق بتلك الفيوض بالحد المطلوب دفعة واحدة ، فتأتى الكتابة مفرغة إفراغا واحدا فى إطار واحد، سواء أكانت خاطرة فى سطر أو سطور ، أو مقاله فى صفحة أو صفحات ، أو كتابا يشتمل من ذلك على مئات. وكل عمل له فهو «بنية حية» لا عضو فيها إلا وهو راسخ فى مكانه بعدة روابط . يؤدى وظيفته لنفسه وللبنية كلها على وجهها الأتم ، ويستمد نشاطه من سائر الأعضاء ويمدها بنشاطه، والأعضاء كلها محكمة التركيب شديدة الوشائج ، فلا اضطراب ولا استرخاء فى شىء ولا يكاد عارض يغير شيئاً عن موضعه منها أو يعطل وظيفته إلا تغيرت وحدة البنية كلها ، وسرى فيها أثر هذا التغير .

ولا عجب لذلك أن يكون العقاد — بحسب ما يحس — أول من نادى بيننا بوحدة العمل الأدبى فغلب أن تكون القصيدة لا البيت وحدة الشعر ، وأن تكون بنية

---

(١) التأليف مطلق الجمع ، والتصنيف جمع الأشياء ثم وضع المتشابهات أصنافا .

(٢) انظر مقالة له عنوانها «اقتراح الكتابة» من مجلة « الكتاب » فى أكتوبر ١٩٥١

(٣) عنوان مجموعة مقالات له (٤) انظر هنا ص ١ — ٢٤

حية على النمط الذى بينه هنا، وكان تفكك القصيدة مما عابه على شوقى — وغيره — كما ترى فى المختارات(١) والقصيدة عند الغربيين وحدة بطبيعتها، فهى ليست موضع كلام عند نقادهم، فالعقاد هنا مبتكر لامقلد ولاناقل، ومصدرا بتكاره إحساسه وحده. ولعلنا نستطيع بعدما عرضنا هنا أن نلخص منه خصائص أسلوب العقاد وهى واضحة فى كل كتاباته أشد الوضوح.

العباس (... الأسد) أهو يبتسم ؟

فهو أسلوب يمتاز بالإدماج والإجمال والشمول وإحكام الصلات بين الأجزاء، مع عمق الشعور ونصاعة الأفكار وفخولة المنطق، وإصابة الأهداف فى الصميم مهما بعدت الأهداف.

وهذا كله أسلوب يساير طبيعة الفتى «الفارس» فى صاحبه، والفروسية لاتخفى على من تفرس شخصية العقاد أو صوره أو مسلكه فى حياته فهو «فتى» فارس فى مظهره ومخبره ومسلكه، ولو لم يكن أمسك فى حياته سيفا أو امتطى جواداً، وقد نقل فروسيته من ميدان الحرب إلى ميدان الأدب، وحافظ على كل خصائصها، كما سنبين بعد قليل، وحسبنا هنا الإشارة إلى أن الفارس المطبوع لايعنيه ما أصاب به خصمه من جراح، أو اغتنمه من أسلاب، أو بتر من أعضاء، بل يعمد إلى مقتل فيه، فيسدد إليه ضربة حاسمة، فإذا هو قتيل أو أسير مستسلم. ولايعنيه من قتل من جيش عدوه عند الزحف ومن أسر وما سلب، بل يستجمع أهبته وينقض بهجمة جريئة على قائدهم وهو فى كبة جيشه فيصرعه، فإذا الجيش فلول بدد، لا يلوى فيه أحد على أحد.

ك — هذه المختارات — وكل أدبيات العقاد — يسيرة على قارئها ظالما اجتمع له ما اجتمع لك من القوة والأمانة عليها. ولكن لابد من أمر ثالث هو الألفة،

---

(١) هنا ص ٧٨، ١٦٣.

وهى لازمة فى كل أدب بل فى كل شىء فى الحياة ، فلكل أديب أسلوبه بل لغته كما قدمت لك، ولا يسلس هذا بغير ألفة ، والألفة أمر يسير جدا طالما اعتمدت على القوة والأمانة ، بل إنها لتغنى الانسان عن كثير منهما، وقد لايكون الحجاب بين القارىء وأدب العقاد وأمثاله من الآداب ـ بل غير الآداب من أمور الحياة عما يستصعب ـ شيئاً غير قلة الألفة له. فالواجب ألفة لغة الأديب التى لابد أن تختلف ـ مادام ممتازا صادقا ـ عن لغة غيره ، وكلما طالت الألفة بين الأديب والقارىء ـ وما يشبههما فى الصلة ـ صارت قراءة ما يستصعب متعة من أطرف المتع ، وبدا كأنما ليس على القارىء إلا أن يقلب الصفحات عبرا حتى تتدفق الأفكار بذاتها من الكتاب إلى وعيه دون أدنى عناء أو مع أيسر العناء ، وقد أسلفت أن عينا نصف مفتوحة مع الألفة تغنى عن عينين حادتين مفتوحتين تستعينان بالمقربات والمكبرات من المناظير .

عدة المطالعة

وقد تكون آفة من يستصعبون قراءة بعض الأدباء ـ أو بعض أمور الحياة ـ ضعف قوتهم أو أمانتهم أحيانا، وقلة الألفة أو عدمها أحيانا ، وكل ذلك واضح فيمن تسمعهم يشكون صعوبة أدب العقاد عن إخلاص، ونقول عن إخلاص لأن بواعث الشكوى عند بعض الشاكين أغراض مريضة لاصلة لها بالأدب ، وقد لا يفلح فى علاجها إلا وسائل أخرى يضطر إليها المؤدبون ، أحيانا وهى ليست غريبة عن الأدب والتأديب ، وكله شىء من مادة واحدة . ومن ذلك أن عميدا لإحدى كليات الآداب عندنا ذهب إلى سكرتير سفارة شرقية يشكو اليه صعوبة كتاب « محمد على جناح » للعقاد فقال له : « خير أن تعيد قراءته » وهذا أغلظ ما فى وسع « الدبلوماسى » أن يقول .

ولقينى منذ سبع سنوات طالب فى معهد عال ، وعرف من صديق له أنى مريد للعقاد فشكا إلى أنه وزملاءه يجدون صعوبة فى فهم فصول من « ساعات بين الكتب» قررت الوزارة اختبارهم فيها وأن أساتذتهم يشكون مثل شكواهم فأثنيت على أساتذتهم ، ثم هونت عليه الأمر، وعرفت أن منها مقالة عن إعجاز القرآن فما لخصتها له حتى وعاها، ثم دعوته إلى أن يلقانى مع من شاء من زملائه لنقرأها معا، فما هى إلا جلسة حتى بدأ حجاب الوهم الذى أسدله أساتذتهم على عيونهم يتهافت ويسخف ، وبعد الجلسة الثالثة زال الحجاب كله وراحوا يبالغون فصولا غير

المقررة من الكتاب ، ويحدثونني بها فيدلون على فهم صائب ، وقلما سألوني عن شبهة في شيء منها، وقد انقلبت ثورتهم على العقاد — دون وعي مني — ثورة على غيره ممن خدعوهم وحاولت أن أخففها وأعلل الأمر بعدم الألفة .

ولقد أغرى بأدب العقاد كثير من طلاب التعليم الثانوي — وأمثالهم في الكفاية مع الأمانة — فاستساغوه ، ثم ولعوا به مع طول الألفة . وظهر لهم بالتجربة أن صعوبة العقاد وهم لا وجود له مع الاحتفال والجد في مطالعته .

وتجربتي مع نفسي تدلني على ذلك ، فقد ولعت به — مع أن الله لم يميزني بذكاء غير عادي — في بواكير المرحلة الابتدائية من تعلمي بل قبلها، وربما كان من أسباب يسره أنني ربيت منذ صغري على حب المعرفة والاحتفال بما أطالع . ولم أكن أجد الصعوبة المزعومة التي ربما تكون سمعتها أو تسمعها من « الكبار » حين لا يخجلون من المجاهرة بها ، وربما تكون آفة هؤلاء أنهم « صغار » جد صغار في القريحة أو المحصول ، أو الهمة، وقد يجمعون إلى ذلك أو دونه آفة شر ا منه: هي حب البهتان لأغراض مريضة تحتاج إلى تأديب كما قدمت ، وإن كانوا في نظر أنفسهم ونظر غيرهم « كبار » بحكم السن أو بالبهرج من الألقاب الضخمة والاجازات المزوقة التي منحها إياهم من ليسوا بأقوياء ولا أمناء على ما يهيمنون عليه من ألقاب وإجازات . فلا يغرنك « كهنة » الهيكل » فإن الهيكليين في كل مكان حرب ء ما يهيمنون عليه وحرب على كل من يدعي دعواهم، ولكن من يدعوه « الحق » ويحرقه لا يجد بدا من أن يشهر سلاحه وصليبه وينادي به من أعلى السطوح .

فيا ليت حركتنا الأخيرة تخلصنا من زيف الألقاب العلمية كما خلصتنا من زيف الألقاب السياسية فيكون مقياس الإنسان عمله فآفتنا أننا شكليون أكثر مما يجب، وهي آفة قديمة ستزول إذا اطردت النهضة وستطرد ، وقد أشار إليها عمرو وابن خلدون وابن الصلت ، ثم المتنبي حين قال موزورا :

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

ليت شعري أنشأة العقاد في هذا العصر نقمة أم نعمة ؟ ومصادقة هي أم تدبير ؟ ثم ذاته هو وسيرته ماذا تعد أمرها ؟؟ أأسطورة تمثلت حقيقة فجاءت خارقة أم حقيقة خارقة تمثلت في أسطورة لأن الحقائق الخارقة لا تكون إلا أساطير ؟

مهما يكن فإن عبقرية هذا «العقاد» ونبوغه اليوم حجة تقوم بيننا على كثير من الناس وكثير من الأمور ، وهو — ولو صمت — يميز الزيف من الصحيح بين مختلف الدعاوى وبين مختلف الأقدار ، لذلك لا يجد الناس حجة ضد المكانات والألقاب العلمية إلا العقاد ، ولاسيما إذا كان المحتج غير حاصل على شيء منها ، ومع ذلك يحاول الكثيرون رفع أدب العقاد ولكنهم يهونون من شخصه . وإنه لمصدر أمل لكل يائس ومصدر يأس لكل آمل . ولقد رفع الأدعياء رءوسهم بعد النهضة الأولى ، وهذا ميدان الأدب يموج بالعابثين عندنا ومنهم الداعون إلى «التقدمية» و«الأدب في سبيل الحياة» وهدم الفصحى و« العلم للملايين » وهي كلمات يراد بها الفتنة .

ولا يخفى عليك ما أسلفت من أنه ما من نهضة قامت على يد أحد ، إلا كان رجلا عظيما .

ولا يخفى على مثلك أن العبث بالنهضات في أولها « داء قديم » في ذرية آدم وحواء وما عليك إلا أن تستعرض ما مر بك من تواريخ النهضات لتعرف عراقة هذا الداء . ولكن ما من نهضة أفلح عظيمها في إقامتها إلا أقام معه أو بعده أدعياء آخرون ينجحون أو يخيبون منتفعين بما ذلل من مصاعب لم يكونوا وحدهم يستطيعون تذليلها . لأن استجابة الجماعة للنهضة على يد قائد آية على رغبة في النهوض وطلب له

وهذا داعي الرجاء في المستقبل ، لأن الأرض التي تنبت الشوك والزؤان تنبت الحبوب والفواكه . وحسبنا الإقبال على النهضة وإن كان علينا أن نحفظها بالشجاعة والنقد الصحيح من الدجالين .

والداء كما أسلفت داء قديم وإن بدا جديداً بالغ الجدة ، والإنسان هو الإنسان ، هكذا كان وهكذا هو كائن وهكذا سيكون ، وقلما نجا صاحب نهضة مخلص عظيم بجلده من العذاب أو الموت يصبه عليه أهل عصره صبا ، جزاء ما يحملهم عليه من خير يكرهونه ، ويحرمهم من شر يحبونه ، وكذلك قلما نجح دجال دعي إلا نال غاية الترحيب والإجلال يصبه عليه أهل عصره صبا جزاء ما يغريهم بما يحبون من شر ، ويعفيهم مما يكرهون من خير . وقديما أعفى مسيلمة العرب من الصلاة ، وحديثا أعفى الأدعياء الناس من المسئولية والجد ، وهب العظيم المخلص نجا بجلده ولقي الكرامة ، فإن لا يلقى إلا أدناها ، لأن الناس لا يعرفون إذا عرفوا إلا أيسر عظمته ، وعلى قدر ما يعرفون يجزون إذا كانوا أريحيين ، وما وجد عظيم قط فاستوفى في عصره

أو بعده حظه من الكرامة إلا على يد بضعة من الناس وإن كان أو لياؤه يعدون بمئات الملايين .

ذلك جانب من المتعة والطرافة فى أدب العقاد وسيرته ننتقل منه إلى غيره

ل — العقاد « أديب كبير » ولقد نشأت وأنا أرى اسمه مقرونا فى الصحف والمجلات دائما بلقب « الكاتب الكبير » ولم أر ذلك لغيره من كتابنا الشيوخ أو الشبان ، وإن رأيت لهم ألقابا غير ذلك ، ولست أدرى متى لقب بذلك ولا أول من لقبه به فى مطلع شبابه ، وتقدمت بى السن وطالعت كثيراً من أدبنا القديم كما أتيح لى أن أطلع على أطراف شتى من الآداب الأجنبية ، غربية وشرقية ، وكنت ولا أزال أتتبع أدبنا الحديث باهتمام . فما عرفت أديبا يستحق لقب الكبير غيره .

أديب كبير

ولقد تغيرت أقدار كثير من قرأت لهم وعنهم فى نظرى صعودا وهبوطا مع تقدم السن وإدمان القراءة وما من أديب بين أدبائنا المحدثين إلا اضطربت به كفة الميزان عندى ، وهى مع التقدم فى السن والمطالعة تخف به غالباً إلا أديب واحد كلما ازددت قراءة له وجدت الكفة تزداد به رجحاناً على اطراد ، وهو العقاد .

لم أكبر واحدا منهم إلا رأيته مع التقدم يصغر كثيرا أو قليلا ، إلا العقاد ، فما أجهدنى أدب واحد منهم ما أجهدنى أدبه ، ولم أدمن قراءة أحد منهم كما أدمنت قراءته ، فما رأيته إلا يزداد أستاذية واقتداراً فى عينى . وتتبعت بواكير أدبه وبواكير غيره فوجدت كثيراً منهم يبدءون صغاراً ثم يكبرون ، وقلما يخلو تطورهم من ردة إلى الصغر فى معظم الأحيان ، ووجدت كثيراً منهم يبدءون صغارا ثم يكبرون ، ثم لا يفلحون بعد فى المحافظة على كبرهم ، بل يرتدون صغاراً كما بدءوا ، أو أصغر مما بدءوا ، ثم لا يزالون يتخبطون فى صغرهم ، وقلما يفلحون فى أن يكبروا بعد هذه النكسة . وهناك من يبدءون صغارا ويظلون صغاراً حتى يشيخوا إلا أديب واحد ، هو العقاد بدأ كبيرا ثم لم يزل يكبر ويكبر ، حتى أتعب نفسه وأتعب أدباءنا جميعا ، وما أراه إلا أنه سيتعب من بعدنا من الأدباء قرونا طويلة .

قرأته فإذا هو جديد ، ثم أدمنت قراءته وصحبته كما لم أدمن غيره بضعا وعشرين سنة ، فلم يزدد عندى إلا جدة وطرافة على الدوام ، وليس كذلك غيره ، وما خلتنى عرفته أو عرفت شيئا من أعماله إلا بدا لى أننى أزداد به جهلا ، فأنا به من أعرفه

العارفين، وإنى لأحس كأنى معه أجهل الجاهلين . ومع ذلك ما اكتشفت جديدا فيه — بعد طول البحث والمشقة — إلا ظهر لى أن هذا الجديد شىء كان تحت عينى منذ أول لحظة له . ولكنى لم ألتفت إليه أولم أحسن فهم دلالته . فما من شىء فيه إلا وهو عندى قديم بالغ القدم، كان منذ النظرة الأولى، وهو فى الوقت نفسه جديد كل الجدة، لأننى لم أفطن إلى كل جوانبه ، وما من شىء فيه إلا هو ظاهر أشد الظهور ، وهو فى الوقت نفسه خفى أشد الخفاء .

ما من شىء فيه إلا وهو طاف بارز ضخم فوق سطوحه يملأ العيان ، فإذا تتبعت أصوله لم أجد لها من قرار مع إطلاق أقصى أمد الخيال. هو رجل باطنه كظاهره واضح مشرق غاية الوضوح والإشراق حتى كأنه لا باطن له، وباطنه كظاهره غامض غاية الغموض حتى كأنه لا ظاهر له . وأنا لا أسأل نفسى عن شىء مما يهم الناس من أمره حتى أرى الجواب حاضرا واضحا ببراهينه وشواهده فى أتم يقين، ثم لا أكاد أمد الطرف إلى شىء آخر لأراه فى انتظامه معه لتكملة الصورة العامة لبنيته حتى أجدنى فى بحران من الشكوك والريب .

إن الألفاظ معه لتفقد كثيراً من صلابتها وتماسكها وحسمها، فلا تقول عنه أوعن شىء من أمره « هو كذا » حتى تقول « ...ولكن كذا » ، وأنا دائما أردد معه « هو .. ولكن » دائرا فى حلقة مفرغة لا أدرى أين طرفاها ، أو كما قال هو :

زاهد الهند نعى الدنيا وصام ... أنا أنعاها ولكن لا أصوم
طامع الغرب رعى الدنيا وهام ... أنا أرعاها ولكن لا أهيم
بين هذين لنا حد قوام ... وليلم من كل حزب من يلوم(١)

أول كما قال : قالوا الحياة « قشور » ... قلنا : فأين « الصميم » ؟
قالوا : « شقاء » فقلنا : « نعم ، فأين النعيم ؟ »
إن الحياة حياة ... ففارقوا أو أقيموا(٢)

فهو دائما لا يستريح ولا يريح، وهو دائما مريح مستريح ، وهو دائما فى تحد لنفسه وللناس وللأقدار، وهو غاية فى القناعة والدعة والسلام والمحبة كما يقول :

إنا لمن معشر حب الجمال لهم ... حب لمن كان فى الدنيا ومن كانوا

---

(١) « وحى الأربعين » ص ١٩ (٢) « ديوان العقاد » جـ ١ « يقظة الصباح » ص ٢٥ .

هذه هى محنتى مع الظاهرة الإنسانية العجيبة التى تسمى العقاد.

ظاهرة حقيقة بالتتبع وطول الدراسة لما فيها من شائق المتعة، ولو خلت من كل فائدة، فكيف إذا جمعت مع أطرف المتعة مايكظ العقول الكبار من المنافع؟

قال ياقوت الحموى وهو يصف الجامع الأموى فى دمشق : « إن من عجائبه أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وكان يتأمله كل يوم لرأى فيه مالم يره فى سائر الأيام من حسن الصناعة واختلافها . » وقل مثل هذا فى العقاد، وقل مثله فى كل إنسان كبير وكل عمل كبير. لأنه يجمع ويوفق بين صفات كثيرة تبدو متناقضة فى الظاهر عند الصغار ، وهى مفرطة فيه لكبره ، ومع ذلك هى غاية الانسجام والتكامل والتمكن .

ليست الصعوبة فى العقاد وكتبه فى إدراك الأجزاء ، فالأجزاء منفردة يسيرة لا صعوبة فيها، واضحة مشرقة لاخفاء فيها ولا غموض ، فإذا حاولنا أن نلم بها جميعاً مرة واحدة فى بنية واحدة — ولابد من ذلك ، لأن العقاد لايعطيك كل عبقريته فى عمل واحد، ولابد من الإحاطة به لمعرفته معرفة صحيحة — فهنا العسر والخفاء والغموض الذى يدير العقول ويبهر البصائر أما الشكاوى الأخرى من الأجزاء فشكاوى أطفال مدللين أو أطفال أشرار ، أو أطفال يجمعون بين التدلل والشر .

فلندع هذا الجانب من المتعة والطرافة لنأخذ فى غيره .

لعب العبقرية

م — لقد اجتمع لك من القوة والأمانة ماهو غنى لك لكى تقرأ أدب العقاد فى يسر ، ولكنى أدعوك إلى ما أشرت إليه من قبل وهو ألفته ، فإنك متى ألفته ستجده مفعما بالمنفعة حتى تحس كأن الكلمات تكاد تنفجر لما يثقلها ويعتلج فيها من أفكار وحياة ولكنك ستجد إلى جانب ذلك حظاً عظيما من المتعة ، وحسبك من ذلك لعب العبقرية الطريف وقدرتها على التشكل بأنماط مختلفة وتلبسها بأزياء متنوعة وتخايلها بحركات متعددة،(١) فهى تظهر لك من حيث لا تقدر وبما لا تتوقع من العهود والأزياء والحركات، فتحس كأنك فى عالم من عوالم الجن حافل بالسحر والخلابة فلا تقول : ، « هذه هى الجنية » حتى تقول بل تلك، ولا تقول «هى هنا» ، حتى تقول هى هناك ، ولا تقول «أقبلت» حتى تراها

---

(١) تحت يدى مئات من الأمثلة على ذلك ، ويكفى الإشارة إلى فصل « وجوه » من قصته « سارة » ، وراجع فى ديوانه « وحى الأربعين » قصيدة « غزل فلسفى » ص ١٠٦ ، و «مباراة فى مزايا الشفاه» ص ١٠١ وديوانه « هدية الكروان » قصيدة « مولد أو نشوء وارتقاء » ص ١٠٧ ، وهذه المختارات هنا ص ٢٠٤ « صنوف حب» .

ولا تقول «غاصت تحت السطوح» حتى تراها فى الآفاق تطير، ولا تقول «اختفت أو تلاشت» حتى تراها خارجة من الهواء مستوية أمامك، والأمر كله مع ذلك جد تام لا هزل فيه، وصدق واضح لا خداع فيه ولا خفاء، وإن للجن والأساطير فى «دولة العقاد الأدبية» حظاً كبيرا غير ما حدثتك به كما نرى فى شعره ونثره[1] الذى يدور حول الجن ويزدحم بالأساطير ولكن ليس هذا وحده ما أعنيه بل هو لعب عبقريته فى أطوارها المختلفة، فإذا كنت من طلاب هذه اللعب العبقرى من تلك الجنية أو تلك العبقرية واستطعت أن تظفر بهذا الجانب السحرى خلال مطالعاتك لهذه المختارات أو غيرها من أدبيات العقـــاد، ثم ألفته حتى فقهت رموزه ـــ إذن فستظفر بألوان من المتعة قل أن تجد لها نظيرا فيما مر بك من المتع الرفيعة، بل ستجد خلال هذا الأدب الجاد الوقور من ألوان الطرافة واللذة والنكتة التى تعلو بالنفس وتفتح آفاق الفكر وتصفى الذوق، وتثير العزيمة ـــ ما يخيل للنظرة العابرة أنه لا يتأتى مع هذا الجد والوقار، وما يندر أن تظفر بمثله حتى عند من لا يعنيهم إلا إمتاع القارىء بالطرائف الكريمة، ودعك من الأدعياء الذين يقصرون ويسفون ولا يلتمسون إلا الأرضى المراهقين فيقصرون رشح أقلامهم المريضة على الطرف الفجة، واللذات الحيوانية المريضة، والنكت الجوفاء. فإذا أقبلت على أدب العقاد تطلب حظك من المنفعة فلا تنس أن تطلب حظك من المتعة ـــ وسأشير إلى بعض هذا وذاك بعد قليل ـــ لتعرف أننا سفهنا فأضعنا العقاد، وأضعنا أنفسنا معا.

٣ ـ النقد عند العقاد

١ ـــ طريقتنا فى الفهم تهيئة الجو النفسى مع تعرف الحقائق وجها لوجه دون حجاب من قاعدة أو مصطلح، حتى «ينتقع» الإنسان فى الموضوع، ثم لتأت القواعد الضابطة والمصطلحات، أو لا تأت إذا بلغ الأمر إلى هذا الحد. فإن لم يكن بد منها

---

(١) دواوين العقاد وكتاباته مملوءة بالحديث عن الجن، وإبليس والاعتماد على الأساطير وتحت يدى مئات من الأمثلة.

فبالقدر اللازم الذى ييسر التفاهم ويهون الجهد بين «العارفين» دون إضاعة الأساس أما القيود المعطلة فتحطم جميعا ، وعلى عكس ذلك الطريقة الأكاديمية والمدرسية عندنا . وأسباب عدولى عن التعرض التام هنا للنقد عند العقاد كثير ، وأهمها ثلاثة بعضها متصل ببعض ، وهى سعة الموضوع ومقتى للخلاصات ، ورغبتى فى إعطاء صورة كاملة له .

مذهبنا ومذهبهم

فقد كتب العقاد أبو النقد الحديث ألوف الصفحات فى النقد بعامة والأدبى منه بخاصة ، ولكنه - كدأب معظم المعلمين الكبار من أصحاب الرسالات العظمى - اعتمد أكثر ما يعتمد على ضرب الأمثال ، لبيان منهجه وتقرير أصوله خلالها ، ولم يجمعها فى كتاب واحد ، وبقى واجبا على «مريديه» أن يستخرجوا منهجه وأصوله من خلال ذلك التراث الضخم ، مشفوعة بأسسها النفسية الذوقية الجمالية فى النفس والوجود ، وأدلتها الفلسفة التجريبية العملية ، مع الربط بينها وبين أدبه كله ومذهبه فيه ، وشخصيته وحياته ، ولم أخل كلمتى من إشارة إلى معظم هذه الجوانب .

وخيرا فعل العقاد إذ لجأ إلى الأمثلة يكثر منها ، ويبدئ ويعيد فيها ، ويدس خلالها أصول منهجه ، ولو أتم هذا بكتاب خاص يجمع شتاتها بعد ذلك فربما كان خيراً ، ولكنه غير واجب عليه ، وهو لن يغنى عن الأمثلة الكثيرة التى ضربها . وإن شأن المعلمين الصغار ، أو الطلاب الشادين ، هو ما تعرف من حشد الأصول دون كثير من الأمثلة فى خلاصات متهافتات . وقد يتفيهقون فيكثرون من العناوين والتقاسيم الإزهزمات ليداروا ما هم عليه من قصور .

المعلم الكبير

ب — ولكن العقاد معلم كبير ، وسيرة المعلمين الكبار من ذوى الرسالات العظمى التعويل فى أدائها على الأمثال ، يفرطون فى الإكثار منها مع الاقتصار على الضرورى من النظريات والقوانين ، وهذه هى الطريقة الفطرية الوحيدة الناجحة فى إبلاغ الرسالات والتربية بها ، وفى التنزيل الحكيم كثير من الشواهد عليها والإشارات إليها ، « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » . وفى الإنجيل : نحو ذلك : « بأمثال كان يكلمهم » و « كلمتكم بهذا بأمثال » ، وهكذا نحن نتعلم حقائق الحياة منذ الطفولة .

وهذا هو ما اكتشفه علماء التربية بعد هؤلاء المربين الكبار بقرون ليعينوا العجزة ممن يتصدون للتعليم طلبا للقمة الحرام أو الحلال وهم غير مطبوعين على أن

يكونوا « مربين » ، وليحولوا بينهم وبين مسخ الفطرة الإنسانية فى تلاميذهم بما يحشون به رءوسهم من قواعد وقيود ومصطلحات لا تكسبهم علما ولكنها تزيدهم غرورا وضلالا ، فإن يكن هذا ما أرادوا فهم أنجح المربين ، وإن لم يكن هو ما أرادوا فقد بلغوا بهم منه مالم يبلغه أكابر المربين لو أرادوه ، ولا أدعوك أن تفتش لتجد فما إخالك إلا مبتلى بعشرات الآلاف من خريجيهم حيثما فتحت عينيك ، ذلك بأنهم « هيكليون » يجعلون الإنسان للسبت ولا يجعلون السبت للإنسان ، وكان العكس أوجب .

وأنا لذلك أمقت الخلاصات ملء إهابى بكل ذرة فى كيانى ، فلقد جربت أمثالها فى الأدب والنقد وغيره خلال حياتى العلمية متعلما ومعلما فوجدتها أعقم الوسائل فى الإلمام بموضوعها ، وأبغضها إلى الفطرة السليمة وأشدها تنفيرا من المعرفة ، وأورثها للغرور والضلال ، وأبعدها وإن ظنت أقربها ، وحسبك نظرة واحدة إلى هذا المستنقع الذى يموج حيالك بالألوف من ضحايا الخلاصات وإن كانت تختال فى أكفانها المزخرفة من أعلى الأنماط وأدناها كالدكتورية ومادونها .

أضرار الخلاصات

ج — إن الخلاصات وهى المعول عليها فى التعليم عندنا لا تمد المستعرف إلا بالقواعد والقيود والمصطلحات مع أمثلة بتراء أو شوهاء وهذا طريق لا يمكن أن يؤدى إلى معرفة صحيحة ، بل لا يمكن أن يؤدى إلا إلى عكس ذلك من معرفة قاصرة مضللة « تسد النفس » عن العلم وتفتح أبوابها للغرور والمسخ .

وما أفسد تعليم الأدب والنقد — وغيرهما — عندنا إلا هذا النهج النظرى العقيم الذى يعاند الفطرة الانسانية ، وهو مع ذلك النهج الوحيد الذى تسير عليه المعاهد كلها عندنا ، والنتيجة ماترى من ألقاب على أنصاب وأزياء حشوها هواء .

ولكن مذهبى الوحيد الذى أدين به هنا هو المذهب العملى : المذهب الذى سلكناه لنعرف به أنفسنا وماحولنا فى طفولتنا ، وهو الممارسة الفاحصة الطويلة للأشياء من شتى الأنماط والدرجات ونحن واقفون أمامها وجها لوجه ، ولهذا دعوتك فى البدء إلى أن تشاركنى « نظرة الطفل وروحه » لكى تبدو لنا الأشياء مباشرة وهى « جديدة طازجة » على الدوام ، فما لم نولد ولادة جديدة عند كل مطالعة لانصل إلى الحقيقة . لابد هنا من ممارسة النصوص وتهيئة ملكات النفس وهمتها لها ، وفتح كل منافذها وإسلامها إليها ، كى تؤثر فيها أثرها دون عائق من قاعدة أو مصطلح ، وتفرغ فيها كل شحنتها الإنسانية ، ولا بد من تكرار التجربة وتنويعها كما تعلمنا الحياة

عفوا ـ ورؤية أنفسنا فيما نجرب ورؤيته فى أنفسنا حتى ننتفع فيها وننتفع فينا ، ولا بأس ـ بعد عشرات التجارب المتنوعة ـ من الإشارة إلى القواعد والمصطلحات لأنها ستأتى عندئذ نتيجة طبيعية لمقدماتها الراسخة فى النفس ، بل إن القواعد لن تأتى حينئذ إلا تعبيرا عما تلخص من غير أن نفطن إليه فى قياس النفس الباطنى ، ولن تكون المصطلحات إلا «شهادة ميلاد» لشىء تم ميلاده فعلا ، وهو يعيش فى النفس فعلا ، ولن ينكر عليه وجوده ولو لم تكن له شهادة ميلاد ، والمهم فى الأدب ونحوه هو الآثار اللا إرادية له فى النفس .

٤ ـ ولو كان لى من « الأمر » شىء لحذفت من كتب التعليم كل القواعد والمصطلحات ، وحرمت الملخصات ، فهى لا تجدى إلا مع كبار الكبار . ولقد كان مما حبب إلى أسلوب العقاد ومنه تعلمت القراءة كثرة الأمثال وقلة التعويل على القواعد والمصطلحات كما سترى ـ لا كما يفعل غيره من صغار المعلمين ، ومن ليسوا بمعلمين . وأنا لم أحاول هنا شيئا مما انتقدت من ذلك .

تجربتان

وأطال الله عمر «شيخى» وغفر له ما أعنتنى به صغيراً حين نذرنى «للعلم» فأغرانى بحفظ « المتون » وهى خلاصات مدمجة لشتى علوم وفنون ـ إذا كان يؤمن بالمثل الخاطىء « من حفظ المتون حاز الفنون » وقد أراد ذلك لوليده ، وشجعته الشيخة ـ رحمها الله ـ فحفظ الوليد المتون حفظا غليظاً ، دون أن يحوز شيئا من الفنون . وكل ما حازه ـ وإنه العزاء الأكبر والعوض الأجزل عما عانى من شقاء ـ هو النظر إلى المعرفة على أنها عبادة وجهاد لا بد فيه من النصب الطويل وبذل أقوى الجهد والإخلاص ، وتكرار المحاولة حين يعز التحصيل ، وبذلك حاز الوليد الوسيلة الوحيدة التى لا وسيلة غيرها لمن أراد أن يحوز شيئا من فنون الثقافة أو الفضائل أو الأعمال الكبيرة ، فوصل الوليد عن طريق الخطأ إلى جادة الصواب : يسعى فيها على قدر خطاه ، وكان هذا حسبه من مغانمها وإن فاته كل مغنم غيره . المطالعة عبادة والعابد المطبوع لا يتخذ دينه هزؤا ، وهى جهاد ، والمجاهد لا يعبث بمهجته .

وكان هذا هو عدتى ووسيلتى ونيتى حين أقبلت على ما يكتب العقاد ، ومن هم أعسر منه فلم أجد الصعوبة التى يشكو منها المراهقون المدللون والأشرار من الشبان والكهول .

والنقد عند العقاد موضوع أعز وأكبر من أن يلم به قلمى العاجز ـ مع كل أردت مذاكرتك به هنا فى ريادتنا الطريق إلى دولة العقاد ـ داخل نطاق كلمة

تلحق بهذه المختارات ، فإن الموضوع واسع متعدد الجوانب متماسك الأطراف ، وأسلوب العقاد ـ كما بينت هنا ـ ينزع إلى الإدماج والإجمال والشمول ، فهو غاية فى التركيز أو التلخيص ، وتلخيص خلاصات العقاد مطلب لا سبيل إليه، ولا يحلم به إلا عبقرى أو مجنون ، ولست من الأولين وأرجو أن لا أكون من الآخرين.

« ليست خلاصة كل شىء غنيمة عنه وإن كانت خلاصة ماهر
فالشهد ـ وهو خلاصه الأزهار ـ لا يغنى العيون عن الربيع الزاهر »

هكذا يقول العقاد فى ديوانه وحى الأربعين (ص ٤٩) فكيف بخلاصة قلم عاجز مثلى ليس له من المهارة حظ يؤبه به ، ولا سيما مع العقاد . سبيل ذلك إذن غير التلخيص ، وهو ما لجأت إليه وستراه فى رسالتى التالية « النقد عند العقاد » .

ومع ذلك ـ وإلى جانب ما أثبته هنا وهناك فى كلمتى حتى لا نظلم النقد نصيبه فيها ـ يمكن أن نشير إلى عنوان المنهج وأصوله بالإجمال ، وإن شئت خلاصة فى كلمات فهى « أنظر فى كل أعمال الانسان وآرائه وعقائده إلى بواعثها فى نفسه وأنت تشعر بمثلها فيك . وكذلك فانظر إلى الوجود كله ، سواء أردت الفهم أو الإصلاح.

هـ ـ وقبل بيان هذا أن أود ألفتك إلى أن العقاد هو أول نقادنا المحدثين فاتح عظيم وأجهرهم صوتا وأوضحهم سبيلا وأبعدهم أثراً وأوسعهم ثقافة وأحياهم شعوراً وأعمقهم فكرا وأبسطهم تعبيرا ، وهو وحده الذى يعد صاحب منهج فى الأدب والنقد والفلسفة فيما وراء الطبيعة والمعرفة والقيم، ومنها الاستتيقا Aesthatics وقد نادى بدعوته قبل أدبائنا بسنوات ثم تبعوه ولكنهم لم يبلغوا ما بلغ فى الأدب ولا النقد و الفلسفة و الشعر ، فمن زعم لغيره مثل ذلك فليأتنا بالدليل ولن يجده . أما نحن فهذا دليلنا بالإجمال .

و ـ هو منهج[1] نفسى يزن جميع الأعمال والأقوال والحركات وما إليها فى الوجود ويفسرها ويعللها ببواعثها فى نفس الانسان وفطرة الوجود الحى، ولا يبالى بظواهرها

---

(١) يجب التفرقة بين هذا المنهج النفسى الشعرى كما وضحنا والمنهج (النفسانى) الذى يحاول فهم أسرار ، الأدب والنقد عن طريق نظريات علم النفس ، فاعتقادى أن علم النفس ـ وغيره ـ نافع فى الاسترشاد به ، ولكنه لا يستطيع أن يكشف أسرار الأدب وتمييز جيده من رديئه ، وقد جرب فى أوربا ففشل ، ويتعاطاه هنا بعض الأكاديميين فلا يدلون على تذوق صحيح للأدب ، ولا يصلون إلى حكم سليم فى مسائله ومن هؤلاء الأستاذ محمد خلف الله أحمد صاحب كتاب (من الوجهة النفسية: فى الأدب ونقده) وهناك فرق بين فن النفس وعلم النفس فالفنانون نفسيون بالفطرة وعلم النفس وحده عقيم، ماذا تفيد الشمس فى هداية الأعمى؟

وعناوينها إلا بمقدار ما تؤدى إلى تلك البواعث وتدل عليها . كما لا يبالى النظر إلى الغايات المدعاة صحيحة كانت أو منتحلة إلا بمقدار ما ترتبط بتلك البواعث وتحقق من أعمالها. فما وجد نشاط فى تلك البواعث فلا بد من إفراغه أو التعبير عنه بأى صورة حقيقية أو مجازية ، فالمهم أن يفرغ فيها ذلك النشاط وأن تشحن به منهج نفسى شعورى إنسانى وتستنفده وتعبر عنه ، وبمقدار ما تمتلىء بذلك يكون حظها من الحق والجمال والقوة جميعا ، سواء فى ذلك قصيدة من الشعر أو الوجود كله .

إنه لا ينظر إلى آثار البيئات والعصور وأطوار الاجتماع وتقلبات التاريخ والحروب وفترات السلام والانتصارات والهزائم والمخترعات والثورات والنهضات والانتكاسات والاقتصاديات والأخلاق والسياسات والآداب والفنون والفلسفات وألوان التصوف ومختلف الثقافات والتراث الإنسانى جميعا إلا من حيث بواعثها فى نفس الإنسان كما تضطرب فيها الحياة ، فكل عمل إنسانى فصدره عن النفوس ، وهو تعبير عما يتدافع فيها من تيارات الحياة ، ولو لم تكن هناك غاية قريبة ظاهرة ، وفى هذه النفس تفسيره وعلته المبدئية القريبة، فالعقاد لا ينظر إلى أى مظهر إنسانى مبتوراً عن جذوره فى نفس صاحبه فردا كان أو جماعة ، ولا يكد ذهنه بالبحث عن غاية لتفسيره أو تعليله بعيدا عنها. بل يمضى منه قدما إلى ينابيعه فى هذه النفس ، ولا يبالى أن لا يخضع ذلك لمنطق العقل أو تجربة المعمل، لأن الحياة لا يحيط بها ذلك المنطق ولا تلك التجربة ، ولا تتفجر ينابيعها فى وصاية المنطق العقلى والتجربة العملية(٢).

وأمسك بهذه الحقيقة وخذ تواليف العقاد جميعا أو واحدا منها أو صفحة أو فقرة فلن ترى غير هذا المنهج فى أتم جلاء .

إنه يمضى إلى كل الأبواب الحقيقية والخادعة القائمة دون أبواب الحصون المحيطة بالناس والحياة، فلا يقف أمام تلك الأبواب يصور هيئاتها بل يطوقها ويدقها جميعاً بعزم فى وقت معا ليعرف حقيقيها من زائفها ، فإذا انفتح له بعض الأبواب الحقيقية انطلق كالإعصار خلالها يهاجمها جميعاً بكل ما عبأ من كتائب ملكاته المتعددة المتنوعة، لينفذ منها جميعا إلى ما وراءها من مداخل، حتى تتجمع كل قواه فى أعمق رحابها، ثم يرتد منها إلى مخارجها جميعاً ليستكمل ما عرف من تلك الأبواب، ويمتحن ما عرف منها أولا وآخراً بما عرف من أسرار الحصن الداخلية ، ومتى عرف

(٢) عبقرية الصديق ٦٧

تلك الأسرار لم يبال أن يحكم على بعض الأبواب بأنها حقيقية أو خادعة ، ولو لم يجربها، ومع ذلك تراه أصدق حكما عليها ممن حاول تجربتها على غير نهجه، إذ ما دام قد عرف هندستها وفكرتها العامة فقد عرف منها كل شيء حتى ما لم يره ولم يسمع به كأنه رأى وسمع ، ومن هنا ينظر نظرة شاملة للكل ويتنبأ فتصدق نبوءاته ، لأن النبوءة حكم عن قياس صحيح لغائب على شاهد لاطراد العلة ، وقد يتم هذا القياس في باطن النفس فتمتلىء به ولو لم يملك الذهن أدلته فهو يقول :

من يرَ النفس من الباطن لا يحفل الظاهر في الدور القواء
من يرَ الفن خيالا فله بالرؤى عن نظرة العين غناء (١)

هذا هو منهج العقاد في النقد والأدب والفلسفة وكل ما يقضي به في أمور الناس والحياة أيا كانت الصورة التي يعطينا إياها ، وهو كما ترى منهج لا يستطيعه إلا أولو العزم من العباقرة وهو مع ذلك أيسر المناجم وأصحها .

وحدات فنية حية

ز ـــ هناك وجود واحد ذو بنية حية تحيط بكل موجود، يجمعه نظام واحد ، وتجري عليه نواميس واحدة ، وإن كان ذا صور وعناصر واتجاهات مختلفة ، وهو يتنوع ويتدرج أجزاء بعضها داخل بعض ، وكل جزء فهو أقل من الكل الذي هو فيه ، ولا تعرف قيمته إلا بالنسبة لهذا الكل وفكرته ، وهكذا أي جزء من كل أكبر منه(٢) .

وأحوال الانسانية تجري على هذا النمط، ولا يمكن فهمها إلا عليه، فرأي الإسلام في مكانة المرأة مثلا لا يفهم إلا بمعرفة كيانها ووظيفتها ومعرفة رأي الاسلام في النظام الاجتماعي كله، وإن هذا النظام لا يفهم إلا بفهم الديانة الاسلامية كلها، وهي لا تفهم إلا بربطها بما تقدمها من الديانات والأحوال النفسية التي ظهرت فيها صدى لعوامل عالمية وكونية مختلفة ، وربطها بالوجود من وراء ذلك كله .

وبيت الشعر لا يفهم حقا إلا بمكانه من القصيدة والنظر إلى فكرته العامة(٣) والقصيدة لا تفهم حقا إلا بمكانها من ديوان الشاعر وحياته ، وديوان الشاعر صورة نفسه الخاصة ، وهذه هي الطبيعة الفنية التي تجعل شعر الشاعر ترجمة حياته الباطنية(٤) ، فإذا لم تعرف حياته من ديوانه فما هو بشاعر ، ولو كان له

---

(١) وحي الأربعين ص ١٢٧ (٢) الله ص ٢٧٦
(٣) انظر ص ٧٨، ١٦٣ هنا (٤) ابن الرومي (المقدمة)

القصيدة لا البيت إذن هى وحدة الشعر(٢) وهى بنية حية تتغير بزيادة شيء فيها أو نقصه أو تقديمه عن غيره أو تأخيره ، وبه تنحل بنيتها ، وتختل هندستها .

والنغمة لا تعرف إلا بمكانها من اللحن والفكرة العامة المسيطرة عليه . . واليد لا تعرف فضيلتها إلا بالنظر إلى الجسم وفكرته بعامة . والنقطة فى الصورة لا تعرف دلالتها إلا بالنظر إلى جميع الصورة وفكرتها .

ليس هناك إلا بنية حية كبيرة(٣) تضم بنى حية مختلفة أصغر منها وهكذا . . وكلها مشمولة بنظام واحد يجعلها متكاملة مؤدية لفكرة «الكل» العامة فى تآلفها وتنازعها ، والنواميس تضبطها لتتطور خلالها وتحفظها من الفوضى والتبدد وتكون سبباً للشعور بها .

وفى الوجود جميعاً تلتقى الحرية والضرورة ، والجمال والمنفعة ، والروح والمادة كما يلتقى فى فنوننا فرح اللعب وقيد الوزن ، ويتعانق الخيال الشارد والقافية المحبوسة ، والقوانين هى مهر الحرية ووسيلة الإحساس بها ، وهذا أب الفن الإلهى والفن الإنسانى على السواء .

والوجود عمل فنى كبير ، لا يعرفه الإنسان إلا وهو فيه ، وليس ثمة كينونة صحيحة وكينونة زائفة ، وظواهر الوجود من بواطنه ، وكل شيء فيه فهو على مسافة واحدة من أعماقه وسطوحه ، فالجمال البادى على وجوه الأشياء جمال متصل بأسباب الأبدية اتصال أصدق الحقائق وأخفى البواطن ، أو هو صورة الحقائق الأبدية الحسنى(٤) . ولذلك يقول فى الشعر :

إنى ألوذ بشعرى حين يطرقنى ... من الطوارق نزال وضيفان
والشعر من نفس الرحمن مقتبس ... والشاعر الفذ بين الناس رحمن
لقد عبدت الأقانيم التى جمعت ... ما فرقته أقانيم وصلبان
الحب والشعر دينى والحياة معاً ... دين لعمرك لا تنفيه أديان
هى الحياة جنين الحب من قدم ... لولا التجاذب ما ضمتك أكوان
والشعر ألسنة تفضى الحياة بها ... إلى الحياة بما يطويه كتمان

---

(١) ساعات بين الكتب ص١٤٢ (٢) أنظر ص٧٨ ، ١٦٣ هنا .

(٣) العقاد يعتقد أن الله ذات فهو لا يقول بوحدة الوجود التى ترى أن الله هو الكون (الله ص ٥٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧) . (٤) مجموعة «مطالعات فى الكتب والحياة» (المقدمة) .

لولا القريض لكانت وهى فاتنة ... خرساء ليس لها بالقول تبيان
ما دام فى الكون ركن للحياة يرى ... ففى صحائفه لا شك ديوان
كن بالخوالج حياً فالحجى حدث ... لريبه ، ووقار الحلم أكفان(٢)
وإنما المرء يحيـــا فى خوالجه ... وليس يحييه فى الألباب رجحان(١)

ح ــ وماداام الأدب بلاغا عن مواجد الحياة فى نفس صاحبه فهو لازم ولو لم تعرف فائدته، وهو ملكة إنسانية لا لغوية(٢)، إذ كل عمل اللغات ــ ونحوها ــ هو البلاغ عن تلك المواجد، وبمقدار ما تصدق البلاغات يكون حظها من الجمال، لأن الجمال هو الحرية. فإذا وجد فى النفس شىء فليس هو بأدب حتى يبلغ بالكلمات، وقد توجد اللغة ــ ونحوها من رسائل البلاغ ــ ولكنها وحدها ليست بأدب ، لأنها لا تجد ما تعبر عنه ، فليست اللغة هى الشعر ولا الأدب ، وإنما الأدب أو الشعر كما عرفه « هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق(٣) » . « وانظر إلى من قال لا إلى ما قيل » . ورب إنسان يصور لك نفسه فى عشرات من الأبيات فهو الشاعر ، وقد يعجز غيره عن ذلك مع نظم عدة دواوين فليس هو بشاعر (٤) فلا قيمة للكمية إلا بعد صدق الكيفية وجمالها ، فاذا فقدت هذه الكيفية فلا قيمة للكمية مهما تبلغ من الضخامة ، وإذا وجدت الكيفية فهناك شاعر عظيم وشاعر غير عظيم والأول هو من « تتجلى من شعره صورة كاملة للطبيعة بجمالها وحبها لها ، وعلانيتها وأسرارها ، أو أن يستخلص من مجموعة كلامه فلسفة للحياة ومذهب فى حقائقها وفروضها أياً كان المذهب وأياً كانت الغاية الملحوظة فيه »(٥)

وما دام الأدب تعبيراً عن مواجد النفس ، وملكات النفس جميعا كيان واحد، فليس الشعر عواطف فحسب بل هو فكر وخيال أيضا . لأن الإحساس والتفكير ليسا منعزلين فى النفس ، وليس وصف الأطلال إذن ولا وصف النوق الآن خارجا عن الشعر ولو أنه أقدم ما عرف لنا من شعر ، لأن العبرة بالإحساس الصادق ثم التعبير الجميل ، ولا يخرج المدح من الشعر ولو كان بأجر ما دام المادح صادق الاحساس بما يذكر من مناقب الممدوح ، جميل التعبير عنه ، والأجر على الشعر

---

(١) انظر كتابه «الله» حى ص ١١ ــ ٢٠ ، ٣٤ ــ ٥٢ (٢) ديوان العقاد ص ٤٣ .
(٣) المختار ١٠٠ ص ٣٠٧ هنا نقلا عن «يسئلونك» ص ٤٤ والمختار ٩٢ ص ٢٩٦ و(يسئلونك) ص ٤٤ ، ووحى الأربعين (مقدمة) (٤) مطالعات فى الكتب ص ٩٥ .
(٥) يسئلونك ص ٤٣ ــ ٤٤

كالأجر على التصوير الفنى لا يطعن وجوده فيه على هذا الشرط ولا يعطيه عدم الأجر قيمة إذا فقد الجودة، والنكتة تعد من الشعر إذا كانت عن ملكة نفسية(١).

ط ــ والفن والأدب قائم فى النفس بمعزل عن وسيلة البلاغ، ولكنه لا يبلغ من نفس صاحبه إلى نفس غيره إلا بوسيلة، ولا قيمة للوسيلة إلا بما فيها من بلاغ، فهى تترجم عما فى نفسه، وقد يترجم عنه بغيرها من وسائل البلاغ الفنية بالأنغام والحركات والرسم والنحت ... وإذن فسبيل الفنون جميعا واحدة، وإن كانت مختلفة الوسائل ولكل وسيلة طاقتها(٢)، وما دامت اللغات ليس إلا ترجمات عن المواجد النفسية فالترجمة من لغة إلى لغة مقياس صحيح لتمييز صحيح الأدب من زائفه، وجيده من رديئه، فالجيد فى لغة جيد فى غيرها، ولا يمكن أن يكون الأدب رديئا فى لغة جيدا فى غيرها وإن كانت الترجمة لا تحفظ كل حليته (٣)

ولا عبرة فى التأدى إلى سريرة الإنسان بقصر الكلمة أو صغر الخبر أو الحادثة بل بدلالتها على نفسه، ولا يلتمس فهم عمل أو قول إنسانى أو تفسيره أو تعليله بغير مناطه فى نفس صاحبه، وعلى هذا النحو نفرق مثلا بين نهج أبى بكر فى إسلامه ونهج عمر أو غيرهما كعلى وعثمان وبلال وعمرو ... ونعرف موقف كل منهم من النبى فأبو بكر وعمر يحبان محمدا ويعجبان به فعلا، ولكن أبا بكر يعجب بمحمد النبى وعمر يعجب بالنبى محمد(٤) . . وعن هذا الطريق نعرف موقف النبى من كل منهم وموقف بعضهم من بعض، وإن كانوا جميعا أبناء عصر واحد، وأمة واحدة، ودين واحد، ومدينة واحدة.. وكل من هذه الآحاد لا يؤدى إلى التفسير والتعليل وهو وحده ومع سواه منها لا يغنى تفسيرا ولا تعليلا لبيان نهج كل من أولئك الأعلام إلى الاسلام ولا وجهة أعماله وأقواله وأسبابه بمعزل عن نفسه التى نبت فيها كل شىء ينسب إليه . .

وهكذا نعرف شخيصة «المقوقس» الزعيم المصرى لا بالموازنة بين الأخبار. بل بمعرفة «دوره» فى «الموقف العام كما يجب أن يكون فى عصره» لنعرف حقيقته ونقدر أعماله، وبهذا تنكشف لنا «شخصية الزعيم المصرى(٥)» ونرحض عنه تهمة الخيانة للرومان، لنوكد ولاءه لأمته .

---

(١) شعراء مصر ٢٤

(٢) كرر الاستاذ ذلك فى مواضع عدة تجد بعضها هنا (٣) الديوان وانظر ص٥٣ هنا

(٤) عبقرية الصديق ص٨٦ (٥) انظر «عمرو بن العاص» ص ١٠٩

ى ـ وهكذا نعرف اختصاص الله الأمم السامية بالنبوة وظهورها فى مدن القوافل دون غيرها ، ونعرف اتجاهها من بأور ثم إلى فلسطين وتنتظر أن يبلغ «أبو الانبياء» إبراهيم الحجاز، كما تعزز ذلك دلالات مقارنة اللغات والأحافير(١). ولا نتهجم إذن باسم البحث العلمى لننكر ذهاب إبراهيم إلى الحجاز ونشكك الناس فى دينهم وقرآنهم كما فعل شيخ معروف من شيوخ الأدب عندنا ـ تهجما منكرا وإن لم تجهل بواعثه «فى نفسه» يقول العقاد . «أكثر غوامض التاريخ يخلقها المؤرخون لأنهم ينظرون إلى التاريخ كأنه حسبة أرقام لإحصاء السنين والأيام ، أو كأنه أطلس مواقع ومعالم، أو كأنه سجل حوادث وأنباء ... ولو أنهم واجهوه على قاعدة واحدة ـ وهى أنه وصف نفوس إنسانية ، وأن حوادثه وأنباءه ومعالمه ومواقعه وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام إنما هى تبع لوصف النفوس الانسانية ـ لما بقى فيه غموض ، أو بقى فيه الغموض الذى يغمض علينا لسبب مجهول (٢)

وهكذا فلنبحث عن أسباب انتشار الشيوعية فى نفوس معتنقيها وأمراضها(٣) من كسل وحسد وغرور وإسفاف وجنوح إلى الشهوات وحصانة ضد المثل العليا ... ولا نبحث عنها فيما يملك معتنقوها وما لا يملكون من مال أو منصب أو أسرة أو جاه أو معرفة أو شهادة علمية .

وبهذا الميزان النفسى أيضاً نميز مكانة الرجل والمرأة فى الحياة ، ونعطى المرأة مالها من حقوق بحكم ما عليه تكوينها وطبائعها ولو عاندها إلف المجتمع , فلا نرفعها كما يفعل أشباه الرجال وأحلاس الأندية فنظلمها ، ولا نخفضها كما يفعل الجفاة الغافلون فنظلمها ، وللعقاد اهتمام شديد بالمرأة ولها فى دولته الأدبية العظمى نصيب كبير ، لا من حيث هى متجه غزله فحسب، بل من حيث هى إنسان فى الحياة، ولا يخلو كتاب من كتبه دون اهتمام بها منذ كتابه «مجمع الأحياء» بل مجموعته «خلاصة اليومية» سنة ١٩١٢ حتى الآن ، وله فيها كتاب خاص هو «هذه الشجرة» ، وهكذا فليبحث فى النفوس الإنسانية عن أسباب قيام الحكومات الديمقراطية

(١) كتاب «أبو الانبياء» ص ١٩٢ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠

(٢) أبو الأنبياء ص ١٦٩ (٣) فى مواضع مختلفة من كتبه ومقالاته مثل كتابه «فى بيتى» و«الله» و «الفلسفة القرآنية» لأن الأستاذ لا ينفك يكشف مقاتل الشيوعية والشيوعيين ، وأقربها اليك هنا المختار ١٠٨ ص ٣٢٦ . نقلا عن مجموعته «بين الكتب والناس»

والدكتاتورية (١) .

وهكذا فالمعرف مصدر الأخلاق عند الناس فى النفوس الإنسانية وتفاضلها بما تدل عليه من حرية وقوة تقترن بالجمال ، لأنها قوة لدنية فى نفس إنسانية ضابطة لأمرها لا قوة آلة مادية ولا قوة عضلية كأن مادية محكومة بسواها (٢) .

وهكذا نفضل رقصا على غيره بما يمثل من مرح الفكر الانسانى حين ينشط فيملى نشاطه على الحواس والأعضاء ، فالراقص هنا له نفس إنسانية شاع فيها السرور فنهضت بالجسم إلى الحركة الموزونة والنشاط المنسوق ، ودونه الرقص الذى يمثل المرح الجسدى الحيوان صحيح ممتلىء الأعضاء برغبات الحياة ، يصول فى حركة لا تعرف الإعياء كالجازبند ، ودونهما رقص «هز الأعطاف» عندنا ، وهو مرح جسدى ولكنه يهبط بالنفس إلى مهاوى الشهوات ، فهو يجمع بين المسخ والتشويه فى الإنسان والحيوان (٣) .

ك ـ والعدل الصحيح ليس هو المساواة فى كل شىء بشهادة الميلاد ، لأن المساواة بين غير المتساوين ظلم ، وهذه مساواة الآلات لا مساواة النفس الإنسانية . إنما العدل أن نعرف لكل شىء فى النفس الإنسانية قيمته وموضعه الصحيح ، ولا مساواة إلا فى الحقوق أمام القانون للأمن على الحياة (٤) وثمرة العمل فحسب ، إذ لا استقرار ولا سلامة إلا برعاية هذه الحرمات ، ثم تفاضل فى الأقدار بحسب الكفايات الإنسانية كأشد ما يكون ، لأن النفوس هكذا تتفاضل فيغنى واحد فى مقام ما لا تغنى جماعات ، يقول العقاد :

ما كثرة المثبتين الأمر تثبته ... ولا بقلتهم للحق إنهان

فإن ألف ضرير ليس يعدلهم ... بالمبصر الفرد يوم الشك ميزان (٥)

ويقول : إنا لنرجو إذا ما الظلم حاق بنا ... عدل الأناسى لا عدل الموازين

عدل الموازين ظلم حين ننصبها ... على المساواة بين الحر والدون

ما فرقت كفة الميزان أو عدلت ... بين الحلى وأحجار الطواحين (٦)

---

(١) كتابه « الحكم المطلق » و« هلر فى الميزان » (٢) مواضع مختلفة من « الفصول » و« مطالعات فى الكتب والحياة » و « الفلسفة القرآنية » و« بين الكتب والناس » (٣) انظر هنا فى المختار ١٠٥ ص ٣١٩ (٤) « الفصول » ص ١٥٨ وتاليها ، ١٦٤

(٥) « ديوان العقاد » الجزء الأول « يقظة الصباح » ص ٤٤

(٦) ديوان « وحى الاربعين » ص ٤٣

وهكذا نقده للنظام الاقتصادى الآلى الجاضر الذى أحال العامل فى المصنع آلة وسلبه كل وسيلة لاستخدام ذكائه والاستقلال بنفسه فى صنع أدوانه(١) .

وهكذا كلامه عن « توارد الخواطر» بين الناس ، فهو لا يعول فى وزنه على على الاستقراء التاريخى وحده كما يفعل غيره، بل يعول قبله على الاستقراء العقلى: أى إمتحان ذهن الكاتب ومتابعة تفكيره لمعرفة ما إذا كان جديراً أن يخوض حيث خاض ، ويتجه حيث اتجه ، فإذا ثبت ذلك فاتهام المتأخر بالأخذ عن المتقدم لغو وتمحل ، وإلا فهو متهم وإن يكشفه استقراء التاريخ (٢) .

وهكذا نجد العقاد يفضل فى موضوعاته قصار الكلمات والأحداث والإشارات، بل الأخبار التى يستضعفها غيره ، إذا كانت أكثر دلالة إنسانية ، ويؤثرها على طوال الخطب والأخبار وكبارا لوقائع الآثار ، بل هو لا يهمل أسطورة من حياة إنسان حتى يعرف دلالتها على نفسه ويستعين بها على فهمه ، ومن ذلك مثلا إشارته إلى ما ورد عن شجاعة الإمام «على» من أساطير حروبه مع المردة والجان ، للتمييز بينها و بين شجاعة خالد مثلا وكلاهما شجاع(٣) .

ل ـ والعقاد فى سيره يشير فى أوائل كتبه أحياناً (٤) إلى إيثاره لصغار الآثار على كبارها ما دامت أدل منها وهذا نهج نفسى لم نعرفه لأحد من كتاب السير قبله غير بلوتارك فى سيره ، إذ أشار إليه فى أول كلامه عن الإسكندر. ولم يوفق فى اتباعه غيره والعقاد بين كتاب السير قديماً وحديثاً ، وهذا أحد الفروق بين كتابة «حياة إنسان» وكتابة تاريخه، ومثله الفرق بين «عبقرية محمد» للعقاد، « حياة محمد» للدكتور هيكل.

وبهذا الميزان نفسه يزن العقاد شعر الشاعر وينقده كما تراه فى دراساته للشعراء القدامى والمحدثين ، بل فى كل دراساته لمن تعرض لهم من فلاسفة وعلماء ورياضيين وفنانين وزعماء وقادة ... ومن ذلك مثلا كتابه « ابن الرومى : حياته من شعره » وعنوان الكتاب يدل على منهجه فى استخلاص صورة حياة الشاعر من شعره ، لأن الشعر والأدب (بل الفن بعامة بل كل عمل وقول لإنسان) بهذا الميزان ـ إنما هو «صورة نفس صاحبه وتاريخ حياته الباطنية » وهكذا يجب أن يكون ، وهذا ما يسميه

---

(١) مجموعته « الفصول» ص١٦٦

(٢) انظرهنا المختار ١٠٤ ص ٣١٤ (٣) «عبقرية الامام» ص٤ (٤) انظر مثلا مقدمة «عبقرية الصديق» ومقدمة مجموعته « شعراء مصر وبيئتهم فى الجيل الماضى » ص ٥ .

العقاد «الطبيعة الفنية» أى «الطبيعة التى تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته أياً كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ، ومن الثروة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره . وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه ترجمة باطنية لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان . ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل كما يلتقى الصديقان أحياناً طواعية واختيارا ، أو كما يلتقى الغريبان فى الحين بعد الحين على كره واضطرار»(١) . .

وهكذا ما تراه هنا تحت عنوان « الشاعر وديوانه » وأوله قوله : « الشاعر الذى لا تعرفه بشعره لا يستحق أن يعرف (٢) » وهو من مقالته عن كتاب « مع المتنبى » للدكتور طه حسين ، ولهذا يهتم العقاد بالشعر لينفذ منه إلى الشاعر على حين أن نهج الدكتور أن يهتم بالشعر دون الشاعر أو أكثر من اهتمامه به كما لاحظ الدكتور نفسه(٣) ، وطريقة الدكتور أيسر مع بالغ جدواها على البادئين من الباحثين ، ومن يعرف هذا يعرف بعض الفروق بين منهج العزم والشجاعة عند العقاد ومنهج الحزم والسلامة عند الدكتور ، فالشعر عند العقاد وسيلة لفهم الشاعر ، مع الاهتمام بالوسيلة ومن هنا اهتمام العقاد البالغ بالشخصيات وفلاحه فى تصويرها بل البحث عن « مفاتيحها » مما لا تجد نظيره لأديب فى العربية(٣) ، بل هو قليل فى غيرها ، كما أن الشاعر عند الدكتور وسيلة لفهم الشعر ، وربما يكتفى به ويهمل الشاعر ، ومن هنا لا تجد له صورة نفسية وافية عن شخصية تكشف أسرارها حتى المعرى الذى اشتغل به الدكتور طوال حياته ، وله أكبر حظ فى مؤلفاته ، ودونه المتنبى ، ومثل هذا يقال عن الفرق بين منهج العقاد ومنهج الدكتور وإخوانه من سائر الباحثين فى الأدب والتاريخ عندنا كالدكتورين هيكل وأحمد أمين وغيرهم من الأكاديميين البارزين ، وأما من وراء هؤلاء فتجار معادن كريمة أو غير كريمة ، لا تجد لأحدهم شيئاً أتمه فى مسبكه الخاص ، ومن هنا عدم

---

(١) عن مقدمة كتابه «ابن الرومى» ص ٤ وفيها تفصيل أوفى وهو يطرد مع كل ماجاء هنا . .

(٢) انظر هنا المختار ٨٨ ص ٢٩١ نقلا عن مجموعته ساعات بين الكتب ص ٥١٠

(٣) من حديث الشعر والنثر ص ٣٦٧ للدكتور طه حسين

الأصالة فى كتابتهم وإن بلغوا ما بلغوا من تنسيق العرض وإحكامه والدعوة له . والأكاديميات تعتمد على الجذاذات وهى طريقة آلات والفرق بعيد بين من ينظر إلى وجه الساعة ومن ينظر إلى عددها .

ويطرد مع ما سلف عند العقاد ويتممه أنه يقول « انظر إلى من قال لا إلى ما قيل(١) » وقوله: « الشاعر من يشعر ويشعر » منذ سنة ١٩١٢ فى « خلاصته اليومية » ومثله كلامه هنا عن « الحقائق الشعرية : كيف يجب أن تفهم » ومقياسها بالشعور الإنسانى لا بغيره(٢)، ومثله كلامه عن « الشر والفنون » فكل ما يمكن أن يؤدى أداء جميلا عن شعور صادق صحيح فهو موضوع صالح للقلم والريشة والمعزف(٣) .. ومثله تعريفه الشعر بأنه « التعبير الجميل عن الشعور الصادق » فى مقدمة ديوانه « وحى الأربعين » وكذلك كلامه عن المجرمين فى السجن وقسمتهم طائفتين مختلفتين : مجرمى الاعتداء ومجرمى الخسة ، لاختلافهم فى البواعث النفسية والأخلاق وضروب الاجرام وذلك فى كتابه « عالم السدود والقيود » .

م ـ ذلك منهج العقاد واضح مشرق مطرد كأوضح ما تكون المناهج وتطرد ، بل كأنه ناموس طبيعى فى إحكامه واطراده ، لأن أساسه فطرة الانسان « فتش فى نفس الإنسان عن كل ما يصدر عنه » وهو لا يرفض الإستعانة بالتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والطب ودراسة الحشرات والنباتات والطبيعة والنصوص .. وكل ما اجتمع له من معرفة لم يجتمع مثلها لأحد فيمن نعرف من قدمائنا ومحدثينا ، ولكن يستخدم معارفه بالقدر اللازم لتمكنه من الشعور بموضوعه أولا ثم لأخذ ما يكشفه منها للقراء ، ولا عبرة بالمصطلحات ، ولا بغير هذا المنهج من المناهج الأخرى كالمنهج التاريخى أو التأثرى أو النفسانى « السيكولوجى » إلا كخادمة لمنهجه ، ولكنه لا يثبت عندها كما يفعل عجزة الدارسين للأدب والنقد والفن والتاريخ والعلم عندنا حين يتبعون تلك المناهج فيملئون كتبهم بالنظريات العلمية والإزمزمات ismisms والمصطلحات دون أن يصلوا إلى تفرقة صحيحة حاسمة بين أدب وأدب ، وقصيدة وأخرى ، وإنسان وغيره ، وحالة إنسانية وسواها . ذلك منهج العقاد النفسى الذى ينظر إلى الأشياء وجها لوجه وذلك منهج الإزمزميين من الأكاديميين ومن يتعلقون بحجزهم من الكسحاء أصحاب الجذاذات ومنهج

---

(١) هنا ص ٢٨٤ (٢) هنا ص ٢٧٣ (٣) هنا ص ٢٧٤

العلماء العلامين والأحبار النحارير ممن يزهون بأكفانى الموتى وهم أشد منهم موتاً ، وكان خيرا لهم لو استبدلوا بها زى العقاد لأنه يجمع بين الحشمة والعصرية.

ذلك منهج الانسان العالمى « العقاد. وهو وحده بين دبائنا ذو منهج شامل ، وليس لأحد غيره منهج أصيل أو غير أصيل فنقد مظمه صدى لنقد العقاد مع صحته ويسره ولكنه لحلاوة روح صاحبه وسيولتها حلو سائل لا ينعقد وإن كان قابلا للانعقاد كما هو عند العقاد. والدكتور طه حسين صاحب آراء منها السديد وغير السديد، ونظريات منها المستعار والأصيل ولكنها لا تكون منهجا ، ونقده ممتاز ولاسيما للنصوص ولكنه لا يستوعب ولا يتأنى وأما فى غيرها فهو كطعامنا المصرى المحبوب «الملوخية» سائغ عذب لذيذ سهل البلع والهضم ولكنه مختلط لا يمتاز شىء من شىء فيه ، وهو غير قابل للإنعقاد والتبلور ، وحظ الدكتور هيكل من النقد ضئيل وليس له منهج نقدى واضح ولكنه أدنى إلى العالم منه إلى الأديب ، ونقد الدكتور أحمد أمين نقد عالم باحث لا نقد أديب متذوق وإن كان إنتاجهم وفضلهم فى غير النقد عظيما .

ن — ولقد يسرت للعقاد منهجه شاعريته الفذة. وهى أعظم ملكاته فيما أرى، ثم عمق فكره الذى يظن المخدعون أنه أثقل شعره وأدبه جميعاً، مع أنه كان نعمة كبرى عليه ، أعانه فى استيعاب كل ما تعرض له من موضوعات وتفسيره وتعليله، ولو بحثوا فى أنفسهم لعلموا أنهم جنوا عليها ولم يجنوا على العقاد شيئاً. جنوا عليها بالجهل والنعومة والكسل والغرور والوخامة ، ولقد حلا لهم أن يطمطموا بأن أدبه كاسمه وإنه « العقاد » للرجولة والأخلاق والضمائر يمنعها أن تهن وتلين ، وإنه «حلال العقد» فى أغوار الإنسانية التى تشكل بالتشابه حيث ينتظر الخلاف ، أو تشكل بالخلاف حيث ينتظر الاتفاق ، وتحت يدى مئات من أمثال هذه العقد التى حلها هو من أيسر الطرق بمنهجه النفسى الشعورى الذى ينظر إلى الأمور وجها لوجه فى نفس الانسان، وليست هناك عقد صحيحة إنما هو ما يغشى العيون والقلوب والضمائر من غشاوات ، ولقد هيء إلى أحيانا أنه يعمد عمدا إلى تلك العقد ومثلها ليحلها، كى يصل ما يبدو مقطوعا ويقطع ما يبدو موصولا ، فإن كتبه لتمتلىء إمتلاء بحلول هذه العقد حيث استلزم الموضوع ، وإن كانت تبدو للنظرة العاجلة كأنها غير لازمة وكأنه الجبار الذى يحمل الأثقال لغير شىء إلا ليروض جسمه

هذا ميزانه الذى يزن به الآداب والفنون بل الرجال والتواريخ والأشياء. ميزان واحد وإن اختلفت لهجته لدوافع خلقية كريمة تدل على سعة نفسه وعزته وبعد همته وإيمانه بالقيم العليا وجرأته فى الحق من أجل الخير طوعا لإحساسه بالجمال.

وما ذكرناه هنا فيض من فيض - كما يقال - من نقده وهو عناوين فى حاجة إلى التفصيل والشواهد، فلنكف بهذا إلى الرسالة الآتية.

س — ويطرد منهج العقاد فى حملته على شوقى وإن كان للعنف فيها أسباب خلقية، فقد زيفه لأنه لا يدل على نفسه ولا على نفس أحد ممن تناولهم بمدح أو هجاء أو رثاء أو تهنئة وبذلك نقله من داخل قصر الشعر الذى حاول أن يتربع على عرشه أميراً قبل أن يصل إليه فضمه إلى طائفة البوابين على مدخله، وأشباههم من رعايا دولة الشعر، ونقول قبل أن يصل إليه لأن حملته عليه بدأت سنة ١٩١٢ فى خلاصة اليومية، ثم اشتدت عنفا سنة ١٩٢٠ فى الديوان، ثم توالت حين شعر بالمؤامرة التى تدبر سنة ١٩٢٧ لتوصيله إلى تلك الإمارة المزعومة ليحول دون فضيحة لن ينساها التاريخ لمصر والبلاد العربية فى تلك الفترة المظلمة، إلا أن تشغله عنها فضيحة شر منها هى إنشاء كرسى للأدب الحديث باسم شوقى فى إحدى الأكاديميات المصرية، فالتواطؤ المريب بين شرذمة من الأدباء على إمارة شوقى فى حياته أمر مفهوم على ما فيه من سوء عظيم، ولكن الأمر الذى من وراء كل تقدير لكرامة العقل والضمير هو التواطؤ على تمييزه بعد موته بالكرامة بين حماة الثقافة والقائمين على دولة الأدب، سواء كان ذلك فى أكاديمية أو فى الاحتفال سنويا بذكرى شوقى فى أحاديث الإذاعة ومقالات الصحف دون غيره من أدباء مصر، فيذكر شوقى ولا يذكر اسم حافظ فى أى مناسبة، وكذلك يذكر مصطفى كامل ولا يذكر محمد فريد ولا عرابى. ولله فيناشئون.

لن ينسى التاريخ لنا إمارة شوقى سنة ١٩٢٧، وإن كان لها من شفيع فهو هوان أمر الأدب يومئذ، ووسائل شوقى الملتوية، ولكن هذا عذر أقبح من الذنب نفسه، فإن الشفيع الحق هو أن كاتباً يسمى العقاد حاول الحيلولة دونها قبل تمامها بخمسة عشر عاما، ثم قبل تمامها بسبعة أعوام وفى إبانها فأفلح وإن لم ينجح. وفتح العيون العمياء، والآذان الصماء، وأحيا الضمائر الميتة، وبفضله وحده كان الأدباء المعارضون لإمارة شوقى سنة ١٩٢٧ أكثر جدا من المؤيدين لها وأكرم بواعث، وأقوى

حججاً وأسلم ميزانا، كما تدل على ذلك المقالات التي كتبت فى تلك السنة ومنها مثلا ما فى عدد «السياسة الأسبوعية» الذى صدر يومئذ خاصاً بشوقى، وأما التمسك بإمارته حتى الآن فشىء يبحث عنه — على نهج العقاد — فى نفوس المتمسكين بها ، لا فى شعر شوقى الذى لا يرشحه إلا لمصير كمصيره هو نفسه إذا كنا نريد لأدبنا ورجولتنا نهضة حازمة عازمة . أو ليعش فى كوخ بين أصحاب الأكواخ من الشعراء أو فى قصر بين أصحاب القصور منهم ، هذا إذا أدركتناسفه الرحمة أو مرض « الحنية » أو آفة الحنان والاسترخاء. فأما أن يبقى متوجا فى قصر الإمارة فشىء لن يشرفه ولكنه يخزى رعاياه وغير رعاياه ، لأن البشر منذ كانوا حتى يكونوا — لو اجتمعوا على أن يعطوا بيت شعر أكثر مما فيه من قيمة لن يستطيعوا، وقد أمرنا بالحكمة ، « اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » .

ولكن ميدان الأدب لايزال يجرى فيه عندنا كل كسيح وأعرج ، وحسبه أن يكون صاحب لقب علمى أو شهادة مزخرفة أو صاحب منصب ثقافى أو غير ثقافى حتى يكون الفيصل فى الأحكام فى كل قضاء أيا كان موضوعه .

ع — وبقيت كلمة أخيرة عن عنف العقاد فى حملته على شوقى، فأما الحملة فهى قائمة بميزان فنى هو الميزان الذى يحاسب به العقاد كل شاعر ، بل كل أديب وفنان وإنسان من أى أمة فى أى عصر ، فلا سبيل إلى دفع الحملة بما اعتاد «الشوقيون» وأمثالهم من حوقلة وتعوذ وتشنج وصريخ ولو استعانوا بجميع البشر ليؤيدوهم عنف الحملة بمثل ذلك، وعليهم هدم هذا الميزان أو إظهار سوء استعماله مع شوقى، على شوقى ويقال لهم — بعد أن يستنفدوا كل بضاعتهم الرخيصة الزائفة ما فى التنزيل الحكيم : « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وأما عنف الحملة فله «أسباب خلقية» لأن شوقى أسرف فى استبداده وتبذله، إذ كان «صوت سيده» كما ولد ونشأ وكما جنى هو بعد ذلك على نفسه. رأى سيده فى القصر يحاول الاستبداد بحرمات الناس وأرزاقهم وحريتهم، ويبتذلهم ويبتذل نفسه ، ومن أسلحة حواشى كل استبداد فى إرضاء مطامعها، وقضاء مآربها — المال والمنصب واللقب، وبذر الخلافات، وإثارة المطامع والمخاوف، والتلويح بالمغريات والمحذورات ، وتدبير الفخاخ ، وضرب العدو بالولى، ثم ضرب هذا الولى بغيره، من الوسائل التى تسكت الضمائر، واصطناع الأقلام والصحف للتنويه بالمستبد وحده والطعن فى غيره ، فإما عمل جديد له تطنطن بمآثره، أو تحطيم خصومه إن عز ذلك

ولن يعز، فإن خيف من منافس فذوو الأقلام المأجورة كـكلاب الطراد ترسل على الفريسة حتى تقع وتذل أو تولى هاربة كسيرة ، فتلعق بجروحها وتجتر حسرتها حتى تموت. وهذا مافعله شوقي وزبانيته مع كل أديب مصري وغير مصري كما فعل مع حافظ والشاعر الكاظمي العراقي اللذين أراد قتلهما جوعا لولا الشيخ محمد عبده ، وزاد شوقي فكان هو كزبانيته يطارد لسيده كل حر وطني وغير وطني ، ومن ذلك قصائده في طعن عرابي الذي كانت جريمته أنه طلب الحرية لوطنه، وشوقي وسيده أعداء الحرية، ومن ذلك المؤامرة التي دبرها سيده الخديو عباس لشهوة دنيئة وكاد يكون فيها القضاء على نحو ثلاثة آلاف من أحرار « تركيا الفتاة» على يد الخليفة عبد الحميد بوسائله الجهنمية المعروفة لو لا تدخل كرومر، وقد أشار إليها في كتابه « عباس الثاني » وتقاريره الأخرى عن مصر، ولا ذنب لأولئك الأحرار إلى أنهم يطلبون من الخليفة الطاغية إشراك الشعب في حكم نفسه . وقد أشار العقاد في مطلع القسم الأول هنا إلى بعض الأسباب الخلقية مما يدل على أن شوقي بلغ الغاية في الاستبداد والإستهانة بالأدب والأدباء - ثم الأحرار - في عصره فلم يكن يسمح لأديب أن يكون له شأن إلى جانبه إلا أن يسبح بحمده ، وسيكتب كل ذلك في فرصة أخرى إحقاقا للحق ، إذ ليست هـذه الكلمة تاريخاً لشوقي أو تلك الفترة السوداء .

والعقاد يؤمن بكرامة الأدب ويعده رائد النهضة وترجمانها ويدعو إلى أن تكون لكل أديب دولة ، وهو يكره كل استبداد وتبذل . فكيف لو تأدى الغلو بالاستبداد إلى المجاهرة ثم المفاخرة ببغيه على الآمنين ، وكيف لو بلغ الغلو بالتبذل إلى المجاهرة بوقاحته ثم الإدلال بها على أهل الكرامة ؟ ومتى يثور الرجل الكريم أو نصفه أو عشره إن لم يثر على هـذا الاستبداد المجاهر المفاخر بؤيده التبذل الوقح التياه ؟ وأي حرمة تمنع صد من لا يرعى لغيره حرمة مثلها ، بعد أن بلغ هذا المبلغ من البغي، مهما يكن المعتدى عليه من البر والرحمة «يسئلونك عن الشهر الحرام : قتال فيه ، قل: قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام،وإخراج منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل » .

والعجب الذي يورث العقل الدوار حتى يسحقه، ويملأ النفس اشمئزازا وتقززا حتى يجعل باطنها ظاهرها أن تجد بين المعرضين للبغي طوائف « العاطفيين » الذين لا يلومون الباغي إذ يسطو على حقوق الناس وينتهك حرماتهم ، ولكنهم يصبون

اللوم صبا على المنكوب إذا شكا ، والشرط والقضاة إذا أخذوا الباغى بذنبه ، ثم تجد « العاطفيين » يرحبون بتعلات الباغى مع كذبها المفضوح ، ويصمون فى عناد عن كل حجج الشرط والقضاة مع أنها واضحة مقنعة ، ولا ذنب للشرط والقضاة إلا حرصهم على سلامة الناس ومنهم هؤلاء « العاطفيون » . وأعجب ذلك أن تجد « العاطفيين » يصابون بالحمى إذا خدعوا فى صفقة بمليمات ولا يبالون أن يخدعوا فى عقولهم وحرماتهم الإنسانية ، بل يبذلونها عفوا صفوا لمن يشاء ومن لا يشاء بلا حساب. ورحم الله شوقى والشوقيين أوسع رحمته ، وكان فى عون المنكوبين والشرط والقضاة.

لو كان شوقى شكسبير الشعر لما جاز له هذا الإفراط فى حرب الأدب والأدباء والأحرار فى عصره ، فكيف وهو ليس أكثر من شاعر صغير مع ما نعترف له به من بعض تجديده كما أشرنا حين حييناه مع غيره من رواد نهضتنا الأدبية . لم يكن لشوقى مقياس إنسانى قط ، ولا يدل عمل واحد من أعماله الكبار والصغار على وجود هذا المقياس ، ولا تعرف من واحد منها ولا جميعها شخصية شوقى كما خلقه الله ، وكل ما فيها كياسة رجل الحاشية الذى يقدر الأمور على حسب « آيين البلاط » ، فهو لم يعرف غيره حتى أقاربه ولا نفسه كما خلقهم الله ، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل ، إذ ليس الإنسان مقياس إلا نفسه . ولقد أتيحت لشوقى تربية ممتازة ومكانة سامية ولكنه فى ذاته لم يكن إلا كملايين العامة ، فلم ينتفع إلا باليسير من تربيته ومكانته وفراغ وقته ويسر حاله ، وعلى من يعتذرون له بنشأته فى بيت إسماعيل فى عصر الحرية أن يذكروا من ولدوا ونشئوا على الرق فأنفوه كعنترة وبلال وصهيب ووردان مولى عمرو ابن العاص وكافور وغيرهم من المماليك الذين ساروا سيرة « السادة » مع أن ثورتهم على العبودية كانت ثورة على الوضع الذى ارتضاه لهم الدين وسلطان الحكم والتقاليد المرعية ، وعلى الذين يعتذرون عن إخفائه شخصيته أن يقرأوا شعر من نشئوا على الرق شرا من نشأته بين الموالى كنصيب وسحيم وأبى دلامة ، فكانوا سادة ذوى شخصيات فى شعرهم وحياتهم معا . وعلى من يتوهمون فيه غيرة الإخلاص لإنسان أو مبدأ أن يعلموا أنه لم يصب بحمى الولاء لمبدإ ولا لإنسان قط ، فيحمل من أجله مكروها دون مبالاة ، إذ هو نشأ خادماً — وإن كان فى حلة تشريفة — وكانت فيه نزعة واضحة فى كل شعره وحياته إلى إبلام نفسه ثم إبلام غيره ، وكان عصره عصر فتنة فكان — لضعف همته — « إمعة » كما قال :

إذا الفتنة اضطربت فى البلاد ورمت النجاة فكن « إمعة »

وقد شغله طلب النجاة عن كل معالى الأمور ، وكان عاميا فى هموم وآماله وشجونه، فكان يستبدل سيدا بسيد ومبدأ بمبدأ طوال حياته بلا تعب، لأنه لا يشعر بحمى الولاء له . كان فى حاشية عباس فكان معه ضد الشعب والإنجليز ، فلما هادن سيده الإنجليز هادنهم هو ، وعزل عباس وجاء بعده حسين كامل فكان معه ومدحه ، ولكن ذلك لم ينفعه، ولم ينس الإنجليز أنه من حاشية الأمير المعزول فنفوه ولم تنفعه معهم الشفاعات ومنها قصيدته بعد نفيه فى مدح شاعرهم شكسبير — لا تقديره — ومعظمها فى مدحهم وهم أعداء وطنه ومستذلوه ومطلعها :

أعلى المماليك ما كرسيه الماء وما دعامته بالحق شماء

ثم كان مع فؤاد كما تدل مقدمات رواياته ، وكان فؤاد مجانبا له مع كل ذلك ، وكان هو لا يكف عن مطاردته . وكان مع سيد سيده عبد الحميد فى حربه لحربة الأتراك ضد أحرارهم، فلما خلعوه بكاه، لا وفاء له بل لأن سيده عباسا كان مهددا بمثل مصير الخليفة الطاغية . ولم يذكر الإسلام ومحمداً فى قداسة المسلم ولو كان عامياً، وإنما كانت المسألة كغيرها « حيلة سياسية » لحساب « سيده » و« سيد سيده » اشترك فيها حين تألبت أوربا ضد عبد الحميد، وانتزعت معظم أملاك دولته وتهددت تركيا، فلجأ إلى تعبئة الشعور الدينى بين المسلمين ضد أوربا ، ولا تدل قصائد شوقى جميعاً على فهم صحيح للإسلام ونبيه، وكل ما فيها مجاراة تلك الحيلة السياسية وفرصة جديدة للتزلف لسيد آخر هو فى مقتضى « آيين البلاط » — لا بمقتضى الشعور الدينى — فوق الملوك وهو النبى وليس إلا النهافت والوصولية . يقول فى مدح النبى :

مدحت المالكين فزدت قدرا فحين مدحتك اقتدت السحابا

ومتى كان مدح إنسان شهادة لمادحه ؟ وإنما يرفع الإنسان عمله ، وتقديره لأحد إذا دل على فهم له، ثم إن شوقى رحل فى بلاد كثيرة فرأى بعينيه السحاب تحت رجليه، فليست قولته إلا تقليداً عن غير فهم لأقوال البدو السالفين . وكان ضد الشعب وضد حريته وأحراره حتى صدر الدستور، فهلل به إرضاء للسيد حتى لا يتهم بأنه ضد رغبته ورغبة الشعب معا ، ونوه بتاريخ مصر ولكنه لم ينوه إلا بالأسر المالكة لا الشعب المصرى ، واختار من تاريخها فترات انهزامها على يد عدو كمسرحيته « قمبيز » الذى فتح مصر ومسرحيته عن « كليوباترا » التى ابتذل فى عهدها الحكم فى مصر ، وبدأت تخضع لنفوذ الرومان على يد قيصر وأنطونيو، كأنما تاريخ مصر خلا إلا من فترات الهزيمة والذل على أيدى الفاتحين .

وعلى الذين يزعمون أن شوقى كان موالياً عن إخلاص غيور لإنسان أو مبدأ أن يعودوا إلى التواريخ التى نظم فيها شوقى قصائده ليعرفوا الثمرة وجذورها وأسباب غرسها وعليهم أن ينظروا مع ذلك إلى كنه الثمرة . وهناك من ينخدعون بخرزاته التاريخية التى يحشرها حشرا فى كل قصائده ، بلا فهم ولا وحى فيها ، وكأنها فى جميع أعماله لا تدل على حب صحيح للمعرفة ولا قدرة عليها ، ولا جهاد فى سبيلها ، ولولا ما أرى من عاميته لعددت ترديده الأسماء المقدسة استهانة بها ، ومثل واحد يغنى من قصيدته التى يغنى بعضها « أيها النيل » :

ما كانت « الفسطاط » إلا حائطا ... يأوى الضعيف لركنه والمرهق
وبه تلوذ الطير فى طلب الكرى ... ويبيت « قيصر » وهو منه مؤرق
« عمرو » على شطب الحصير معصب ... بقلادة الله العلى مطوق
يدعو له « الحاخام » فى صلواته ... « موسى » ويسأل فيه « عيسى » « البطرق »
يا « نيل » أنت بطيب ما نعت « الهدى » ... وبمدحة « التوراة » أحرى وأخلق
وإليك يهدى الحمد خلق حازهم ... كنف « كمعن » أو كساحة « حاتم »
كنف على مر الدهور مرهق ... خلق يودعه وخلق يطرق ...

فماذا كشفت لك هذه الأسماء — على جلالها — عن عظمة النيل ؟ وكيف يجهل شوقى الذى يزعمونه ذا ثقافة واسعة عميقة أن الحاخام لا يدعو موسى على طريقة العوام حين يدعون الأولياء ، بل يدعو إله إسرائيل ؟ وكيف فاتته جبة عمرو وعمامته ولم تلفته منه إلا شارت الحاشية التى لم تكن لعمرو من عصابة وقلادة يطوق بها ؟ وكيف فاته وهو المسلم التالى للقرآن ما فيه من نعى على حكم الفراعنة والطغاة ؟ ولا نسأل عما تذخر به التوراة أو على الأصح هى وسواها من العهد القديم من لعنة المصريين الذين أذلوا إسرائيل وخذلوهم فى صراعهم مع أعدائهم — لا نسأل عن ذلك لأن شوقى لم يقرأ التوراة ولا شيئاً مما يبيح به ولكنه يكتفى بعناوين الأفكار وعناوين الناس كعادة بدلة التشريفة وما عليها من أوسمة وما لصاحبها من لقب . والمضحك الذى يستوجب الرثاء أن يبدو شوقى كالفتاة الريفية الساذجة بل البلهاء إذ ترى قصر عابدين مثلا فتشبهه بكوخ شيخ البلد فى نجعها أو كفرها الذى تسكنه . هذه جهالة مضحكة ، حين يشبه شوقى كنف النيل — ومتى ؟ على مر الدهور كما قال — بكنف « معن » أو ساحة « حاتم » التى لم تضم فى أزحم أوقاتها إلا بضعة جياع أكثرهم سائلون .

وقل مثل ذلك فى معرفته الاشتراكية والإسلام والمسيحية واليهودية ومحمد والمسيح وسقراط مما يبيغ به دون أن يتعمقه إصبعا واحدا، وحسبك معرفته بالنبى كرجل يضعه «آبين البلاط» فوق الملوك. يصحبه فى رحلته السماوية على البراق جبريل:

وقيل كل نبى عند رتبته ويا محمد هـذا العرش فاستلم

فإذا ترى إلا رجل الحاشية، أو «التشريفاتى» يؤمر بدعوة الضيف العظيم الذى أذن له سيد القصر بشرف اللقاء فيذهب إليه ويرافق موكبه حتى إذا فعل ذلك ووصل إلى السدة العليا وقف هو ودعا الضيف إلى التقدم ليحظى بشرف لقاء السيد على عرشه.

ذلك هو شوقى الذى يتهمه أولياؤه بالشاعرية الفذة والثقافة الواسعة والولاء المحموم لمصر والشرق والإسلام والحرية والدستور والبيت الذى ولد ونشأ فيه وتبوأ منه مكانا عليا، ولست أريده تجريده من كل شىء من ذلك ولكنى أريد أن أذهب إلى أنه كان مسوقا لا سائقا.

ل — فمن المسئول عن تلك الجلبة؟ إن شئت الجد المر فاعلم أنها نزعة عريقة فى بعض البشر إلى توثين الآلهة وتأليه الأوثان، وإن شئت الجد الذى به تسترخى العضلات — لطول ما وترناها خلال ريادتنا ونحن نجد فى السير — فهى بدعة ولكنها قديمة أيضاً. واتت شاعراً أميراً — لاشاعر أمير كشوقى — هو ابن المعتز الذى لم يل الخلافة إلا يوما ثم فتك به جنوده فاستراحوا منه، إذ ألف كتابا يسمى «البديع» فعرف بدعة «رد الصدر على العجز» فى الكلام فسار عليه هو وشعراء غيره فأفسد ذلك شعرهم وحياتهم، والأمر هنا كالأمر هناك هو وضع الأعجاز مواضع الصدور ووضع الصدور مواضع الأعجاز فى الكلام شعراً ونثراً، وفى الرجال أيضا، وهذا كما قدمنا داء قديم فى البشرية كان شوقى «شاعر أمير» قانعاً مفاخراً بذلك كما قال:

«شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب.

فرئى أن يرد العجز صدرا فصار «شاعر الأمير» بعد الرد «أمير الشعراء» كما قالوا «بنت السلطان سلطانة البنات» أى أجملهن وإن تكن غاية فى القبح والغباء والفدامة.

صدور وأعجاز

ذلك جانب يسير من قصة حملة العقاد على شوقى، ولولا عنفها لما استيقظ النيام ولما قام فى مصر أدب ولا انقد بهذه السرعة. وأظننا نتخبط فى ظلام من بلاغة السكاكى ومن يجرون فى غباره كما ترى حيث يسار على نهجه فى بعض الكليات

العتيقة والجديدة والمدارس الثانوية عندنا . لأن المناهج فى أيدى طائفة من «فحول التربية» فلو جئت بأعدى عدو لنا كى يبغض ناشئتنا فى الأدب لما بلغ بخططه الجهنمية ما بلغ من ذلك هؤلاء الفحول بأدنى جهد، فاذا حمدنا نهضة الأدب فلنعرف للعقاد فضله

لقد جهل شوقى صيحة المدرسة الحديثة فعبأ لها أسلحته وزبانيته كعادته منذ نبعت ، وفاته أنه « كل الناس إلا عباس » وجنى شوقى وجيله خيراً كثيراً منها ، إذا أخذوا بوجهتها كارهين بقدر مافهموا واستطاعوا وكان من ذلك مسرحيات شوقى وقصائده وإن كان نجم تقديره قد خسف بالعقاد ، فبالديوان ولد عصر جديد

وكانت حملة العقاد فى الديوان عليه فصلا بين عهدين فى تاريخ أدبنا كما تنبأ لها العقاد، وكما حدث وعرفت من بحثى ، وأود أن نفرق بين عدالة الحملة ثم الشدة فيها فالحملة قائمة بميزان فنى ، والشدة فيها لأسباب خلقية . ولست أكتمك ياصديق أنى حين طالعت الديوان أولا سلمت بالنقد لصحته ، وظلت فى نفسى أشياء لجهلى أسباب شدته إذ كنت طفلا حين ظهر الديوان ، وبدأت الحملة فى خلاصة اليومية قبل مولدى ، فوضعت كعادتى علامة استفهام ، وسألت نفسى : ألم يسع العقاد غير هذه اللهجة ؟ نعم سألت مع أنى «مريد» العقاد أحبه وأكبره وأثق به ، ولكن « الإرادة » لا تمنع الاستقلال ولا تعنى من تبعاته ، ومذهب العقـــاد دعوة كل إنسان إلى الولاء لذاته وأن يكون هو نفسه « كن أنت » لاصورة غيره كائنا من كان ، وأن يشعر بمسئولياته عن العالم وهو فيه ومنه ، ونحن على مذهبه لا تقليداً له عن علم أو جهل ولا عن نزعة بزويلية ، Boswellim بل لأنه مذهب الفطرة الإنسانية الذى إتخذه كل عظيم . وكل عمل لايقوم على الفطرة ويستوحيها فهو مهلكة . وليس العقاد أولى بهذا المذهب منا وإن كان هادينا إليه، لأنه قائم فى قلب كل إنسان . ومادمنا نؤمن بمبدأ أو معتقد فنحن أهله كصاحبه وحقوقنا وواجباتنا تجاهه مثله ، وإن اختلفنا فيها بمقدار مالكل واحد من القوة والأمانة عليها .

تحريت أسباب الشدة عند شوقى والعقاد ومعاصرى الحملة فعرفت ماحدثتك بأطراف منه، وسأتم حديثى فى رسالتى « النقد عند العقاد » ولقد عذرت العقاد ، بل آمنت ولا أزال أومن بأنه لم يوف شوقى كل حسابه ، وأنه لابد من حساب أوفى ولا أقول «أدق»، وأرجو أن يتاح لى أو لغيرى ذلك بالقسط إذا شئنا لأدبنا ولرجولتنا الكرامة ، فمن حاجتنا بذكر محاسن الموتى قبلناه واستدركنا أن

الموت لا يحمل على الكذب: بافتراء المحاسن أو الاقتصار عليها، فما من شريعة عادلة إلا تدين بالحساب ثم الجنة والنار فى الدنيا أو الآخرة

ونحن نعرف من فضل شوقى مايجهله الشوقيون فسوادهم لم يقرأ قصيدة كاملة له ، واسأل تدهش مما لم يخطر لك على بال ، وهذا السواد لاميزان لهم لأنهم عامة أودهماء يقادون ولا يقودون. فهم أسراب ببغاوات آدمية . وأما القلة الضئيلة التى توالى شوقى عن قراء مستوعبة صحيحة لآثاره فنحن نحترمهم وإن لم نتراض عند شىء، إذ ليس لهم ميزان صحيح يحتكمون إليه، ونحن نعتقد أن نهضات الأمم ليست لعباً ولهواً فتحل قضاياها بين العاملين لها ومعوقيها «بقسمة البلد نصفين» ولا بتبادل «تقبيل الرءوس» أو بأسلوب نوادى الثرثرة أو ظرفاء الصالونات . بل على أساس الإحساس بالواجب كله والإيمان بالحق كله . والغيرة على الحرمات عامة، فلا نزول عن أصغر صغير من الحق مهما تكن العاقبة . ولسنا ثائرين بل ثورتنا ضد من يثورون على الحق ، ويحكمون على مالا كفاية لهم فيه ، ولا يدينون أنفسهم بما يدينون الناس به ، أما نحن فندين أنفسنا قبل غيرنا بمذهبنا الأدبى ، ونريد لكل إنسان أن يكون كما خلقه الله سيداً حراً فى حياته وأدبه لامقلدا ولا مستعبدا .

حسبنا لنعرف موقف العقاد استعراض سير أفاضل المصلحين لنرى أن منشأ الحماسة فرط مايعتلج فى نفوسهم من الخير والغيرة على الحق والفداء فى سبيله، ولا قيامة لمذهب بغير ذلك ، فلا حقد هناك ولا حسد ولا كراهة كما يتوهم الأشرار والجهلة ، وحسبك سير الأنبياء. أو دونهم جان دارك الفتاة الريفية الوديعة حين تسلطت على عبقريتها حماسة الإيمان والغيرة على وطنها المحتل من الإنجليز ، فجعلتها قائداً تعرف من أسرار الحرب والقيادة مالا يعرف قوادها، ودفعتها إلى خوض الحروب ضد الانجليز نفوراً من بغيهم لا كرهاً لهم ، حتى تمكنت من تتويج الدوفين على فرنسا ، وكانت تعامل أكبر الرجال كأنهم أطفالها. وإذا كان هذا مافعلته «الجذبة» بفتاة ضعيفة فكيف إذا استولت على رجل جبار كالعقاد ؟ وكيف العجب من شدته أو معاملته الكبار والصغار على سواء ؟ إن تجربتى لتدلنى على ذلك، فما أنم بى هذا الطائف حينا إلا رثيت للملوك .

وأما معاصرو الحملة فقد راج بينهم الديوان كما لم يرج كتاب فى العربية حتى الآن ، إذ نفد خلال أسبوع وأعيد طبعه فى شهره، وكان من أثره أن شوقى حين

وغيرهم ائتمر مع مهازيل الأدباء على إمارة الشعر كان معارضوه أكثر من مؤيديه وأقوى حجة وأشرف غرضا كما تدل مراجعة الصحف سنة ١٩٢٧ .

ومما سمعت فى هذا ما حدثنى به أستاذى (س ب) أستاذ الأدب العربى بإحدى كليات الآداب عندنا سابقا ، وهو شيخ تقى متشيع للأدب القديم يحب شوقى ويجل العقاد — ولهذا أكتفى به هنا — أن حملة العقاد على شوقى فى الديوان(١) ذكرتهم فى إبانها بمعارك الإسلام الأولى ضد الوثنية ، وأنه لم يكن بد من العزم المصمم فى التمسك بالمذهب الجديد كله والمصادمة الصريحة به . وتجنب كل تردد فيه ، ولولا ذلك لقضى عليه ولما كتب له النصر السريع ، ولكن من البلاء اللازب أن التاريخ لا يكتب إلا بعد وقته ، وأنه معرض الكثير من الأكاذيب .

وأما العقاد فلم أسأله عن شىء فيه ، إذ رضيت دائما معه بموقف هووى Hui(٢) من أستاذه كنفشيوس ، وأرجو أن يكون لى مثل حظه ، فليس من عادتى أن ألح عليه بالسؤال عن شىء ، ولكننى تتبعت كتبه فما وجدته يغير رأيا أدبيا ارتآه طول حياته ، فرأيه فى شوقى فى حياته كرأيه فيه بعد مماته كما يظهر من كتابه «شعراء مصر» وغيره وإن تغيرت اللهجة لزوال أسباب الشدة .

ولو كان مجاملا أحدا فى شوقى لجامل سعد زغلول رئيس حفلة تأمير شوقى ، ولكنه شمله بهجومه فى جريدته ، وقبل سعد لأنه دمقراطى فحيا الله الدمقراطية إذ لا يطيقها ولا يستحقها إلا الأحرار العظماء . وأنقل إليك فقرة فى هذا الصدد من رسالة كتبها العقاد فى ١٩٢٢/١/٣١ إلى صديق له ، جاء منها « ولا أكتمك أنى أرتاب فى علة رواج الديوان ، فأرى أن حب الأدب وحده لم يكن بأقوى البواعث على لفت الأنظار إليه . فهل تراه كان يحدث هذه الزوبعة الى أحدثها لو خلا من حملة معروفة الهدف شديدة الرماية ؟ وإذا كان ذوق الجمهور لا يستفز بغير هذه الوسيلة فهل تفيده المجاراة فيه ؟ وإن أفادته فهل يحتمل كاتب أن يقصر قلمه على هذا الباب من الكتابة ؟ » ذلك ما قاله العقاد محطم الاصنام ومنها شوقى (٣) .

وأدع لك أن تفهم من هذا ما تشاء لأحدثك عن « عباس العقاد كما أعرفه » .

---

(١) صدر الديوان سنة ١٩٢٠

(٢) أنظر مختارات كنفشيوس وقد مات هووى قبل أستاذه فبكاه وكان يصمت فى مجلسه .

(٣) نقلا عن مجموعته « الفصول » ص ١٤٧

٤ ـ العقاد كما أعرفـــــه

صورة صغيرة عاجلة

قلما تجد بين العظماء من اجتمعت له قوة الشخصية وفتوة العبقرية معا كما اجتمعتا للعقاد ، وقد استوفى من قوة الشخصية أكثر جداً مما يلزم لأديب فى عصره أو غير عصره ، وكانت فتوة شخصيته خيرا له وللناس من جانب ، وشرا عليه وعلى خصومه من جانب آخر . وقوة الشخصية فى هذا العصر بخاصة عرضة للاضطهاد أو البوار على الأقل ، فى معظم الأحيان ، والأسباب كثيرة ، ومن نتائجها القريبة استغناء القائد عن مواجهة جماهيره بشخصه . لتعدد أسباب الاتصال بهم من وراء حجاب ، وهذا ما لم يكن يستغنى عنه قائد جمهور قبل اختراع وسائل الاتصال الكثيرة ، منها وسائل النقل ووسائل النشر ووسائل الإذاعة ، وهذه الوسائل لا يمكن أن تعطى الجماهير صورة صحيحة عن القادة . وإن كثيرا من ذوى النفوذ بين الجماهير اليوم من لو أزال عنه حجابه وخالطها فنظرته وجها لوجه مجردا من هالته لما رأت فيه إلا مخلوقا تافها كبعض من تقتحمهم العين من العامة أو الدهماء ، وقد يكون باطنه خواء تافها كظاهره أو خيرا منه ، ولكنه على كل حال لا بد أن يفقد نفوذه .

وسهولة الاتصال بالجماهير من وراء حجاب تكاد تغنى القائد عن قوة الشخصية سواء كان حاكما أو خطيبا أو مغنيا أو صحفيا أو واعظا أو رجل أعمال... وربما تسوى بين الممتازين بها والمحرومين منها ، وذلك مما يضيع على صاحبها أهم مزاياها : وهو التأثير بها على نفوس الجماهير ، ويجعلها كالعضو الأثرى فى الجسم الحى : يعرض البنية للخطر دون أن يفيدها إلا قليلا . وهذا مع أن قوة الشخصية أحيانا أعظم وألزم فى مواجهة الجماهير للتأثير عليهم واستمالتهم وإقناعهم من مزايا كثيرة سواها .

ومعظم قوادنا اليوم لو زالت الحجب بينهم وبين الجماهير لفقدوا معظم نفوذهم أو كله بل لما أمن بعضهم الهرب بجلده . وأندرهم يستبقونه ، وأفذاذ شواذ يزدادون منه ، ومنهم العقاد ، فنحن على ثقة من أنه لو زال عنه حجابه لنال من النفوذ ما ندر أن ينال غيره ، ولكنه حيل بينه وبين مواجهة الجمهور إلا قليلا فخسر بذلك وخسر الجمهور خيرا كثيرا .

ولا غنى للأمم فى أوائل النهضات عن القادة ذوى الشخصيات القوية والملكات المتعددة ، والمثل الرفيعة كالعقاد . ومع أننا فى مطالع نهضة ، نجد أن قوة الشخصية ـ

كما قدمنا — عب. على صاحبها ، وأن فائدته هو وجمهوره منها قليلة ، وإن كان الجمهور لم يعدم حظه منها ولا سيما بعد أن اتجهت لتغذية عبقريته ومدها بكثير من آثارها ، وآثار شخصيته وضحالة فى عبقريته وضوحا شديدا .

وأدب العقاد صورة نفسه تتفجر منه كل خصائص شخصيته وخصائص عبقريته . وقلما تجد أديبا كأدب العقاد صورت فيه نفس صاحبه بألوان زاهية وبرزت فيه مردة خصائصه الجبارة حتى تكاد تمزق قماقم الكلمات التى حبست فيها لتتمثل أمام القارئ عيانا مخلوقات سوية ، ولو تكلم بلسان غيره صادق الحكاية عنه ، وهذا مافات نابغتنا الدكتور طه حسين[1] حين رآه يتكلم فى «رجعة أبى العلاء» على لسانه — فأخذ عليه أنه صور نفسه لا أبا العلاء ، فإن العقاد إذا كتب عن إنسان شاركه أهابه وحياته قبل أن يكتب عنه ، ويشتقه من داخل نفسه المتهيئة لعمل كل نموذج ، والقيام بكل دور ، وليست الأقوال والأحداث إلا منفذه إليه . والمادة التى يصوره بها للناس .

وما من عمل انفرد به أو اشترك فيه العقاد إلا رأى الإنسان خصائصه القوية فيه واضحة ، وإن لم يره يؤديه ، كأنه السحاب المثقل ، الذى يرى العارف الصحراء بعد أن يزول — وقد جن نباتها وفاضت غدرانها وسالت أباطحها بالماء — فلا يملك إلا أن يرفع نظره إلى السماء ويشير إليها قائلا فى ثقة لا يعتورها الشك : «هنا كان سحاب مثقل ، وهنا لمعت بروق ، وقصفت رعود . . »

واست أجد وصفا أو «سمة» أخصر وأشمل وأدل على العقاد من كلمة «الفتى» فى العربية بمعناها الأصيل وما امتلأت به من معان فى حياتها خلال العصور ولا سيما عند «أهل الفتوة» فى بلاد الإسلام ، وكانوا جماعة لها نظامها وغرضها . وحسبنا من ذلك أنهم كانوا ينذرون أنفسهم لله ، فيفقهون فى الإسلام وأسراره وأحوال أهله ومن حولهم ، ويروضون على الزهد والتقشف ، ويعلون حمل السلاح للدفاع عن المسلمين عند الخطر ، ويحيون حياة الشهداء ، ولطريقتهم تاريخ طويل حسبنا منه أنهم يعودون بها إلى «الإمام على» وهو أصلح عنوان لها بين الصحابة جميعا ، وقد اشتهر بيننا المثل الذى علمناه صغارا :

«لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على سيد الشهداء»

فعلينا هنا أن نذكر دلالتها الأولى وعند أهل الفتوة فيما أشرنا وتتمثل شمائل

---

(١) انظر «فصول فى الأدب والنقد» للدكتور طه حسين ص ٢٤ ، ورد الأستاذ العقاد فى ساعات بين الكتب ص ٣٤٤ .

«الإمام علي» فى خارق قوته وشجاعته وصدقه وصراحته واستقامته ونزاهته وتقشفه وتواضعه، وإفراطه فى طلب المعرفة، وسلامة صدره من ضغن على أحد حتى أعدائه، وكراهته البغي وعدم البدء بالقتال، والتعويل قبله على الحجة، فإن خابت وحق القتال فهو الموت لخصمه، فإن ولى تركه، وإن ثبت قتله ثم تحسر عليه وترحم، وذكر فضله جهارا، ولنذكر ما تعرض له الإمام من هضيمة منذ صباه عمدا وعفوا من أوليائه وأعدائه، حتى نال الشهادة التى عاش عمره ينهج فى طريقها من حيث أراد ومن حيث لم يرد وهو عالم بأمره ومصيره، وكان طوال حياته وبعد موته فتنة لأوليائه وأعدائه: أحبه قوم فألهوه وكرهه آخرون فكفروه. هذا ما نريد بكلمة «الفتى» أو النموذج الإنسانى الذى نسمه بهذه السمة وأعتقد أن هذا ما يسميه أستاذنا العقاد «الفارس» وكلمته أعلى، وكلمتى أحب إلى، ولا مشاحة فى الاصطلاح، فلنع مدلول «الفتوة» أو «الفروسية» فلعلها مفتاح صالح لفتح مغاليق شخصية العقاد وعبقريته وسيرته إجمالا وتفصيلا. ولنذكر أن الدين — ولا سيما الإسلام — قد يهيء «للفتى» ما يرضى فتوته وينميها ويظهرها، ولكن هذه الخصائص واضحة فى كل «فتى» ولو كان على غير دين وحسبنا شاهدا عنترة الذى يقول من معلقته مثلا:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
ينبئك من شهد الكريهة أننى ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ولقد ذكرتك والسيوف نواهل ... منى، وبيض الهند تقطر من دمى..

ولقد ورث العقاد الفتوة عن خئولته وهو أضلع فيها ممن هم أولى بها منه. ونصيب هذه الخئولة أكبر وأوضح فى تركيبه وهمومه من نصيب العمومة، وقد هيأت له أسبابها أيضا نشأته فى «مدينة القوافل — أسوان» فى أواخر القرن التاسع عشر وهى تعج بالجيوش لاسترجاع السودان ومنبته فى بيت علم وتقوى، وبعض الإخوان يرى صورة العقاد فى كتابه «عبقرية عمر» وأراها فى «عبقرية الإمام» والفرق فيما أجد بين الجندى والفارس أو «الفتى» على ما بينهما من مشابهات قوية، هو أن الجندى للصف وتعويله على الجماعة أكثر، وهو يحسن الأمر والطاعة ونصيبه من الحسد أقل، وهو أدنى إلى الواقع منه إلى الأحلام، وأدنى إلى الفخر والخشونة والشغب، وأقل جرأة على الموت فهو أقل تعرضا للشهادة، والفارس أو الفتى للمبارزة وحده وللطليعة والمطاردة، وتعويله على نفسه أكثر ويغلب عليه النضوج المبكر، ولا يعتمد على الطاعة والأمر فى عمل بل العدوى والتأسى بغيره ولغيره، وهو أدنى إلى اللين والدعة والسلام، وأطبع

على المعرفة وأكثر حظا من النبوة ، وأقرب إلى الأحلام أو الواقع البعيد منه إلى الواقع القريب ، وأكثر شغفاً بالمجهول وفطنة إلى الأسرار ، وأرغب فى الشظف والقناعة والزهد فى عروض الدنيا ، يغشى الوغى ويعف عند المغنم ، وأكثر جرأة على الموت ، فهو أكثر تعرضاً للشهادة وحباً فيها وصبرا على مواجعها ، وكان المتنبي شاعر الفتوة إذ قال :

والعار مضاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا

ونظرة إلى على فى صفين والحرب على أشدها ، يرتق النوم فى عينيه على قربوس سرجه وهو قائم على فرسه ، ويدفع بفلذات كبده فى مضايق الهلاك فيها ويلومهم على أدنى أناة كأنه يدفع بهم إلى «حمام سباحة» ليمرحوا ويتعلموا العوم . ونظرة إلى الحسين ليلة كربلاء وهو غاية فى السكينة كأنه مصبح على نزهة ساعة ثم يعود .

وقارن بين تواريخ الجنود كخالد وعمر وقيصر والإسكندر ونابليون وعلى بن الجهم والبارودى ، وتواريخ الفرسان كعنترة وعروة بن الورد وعلى والحسين ولويس التاسع وقلب الأسد ومحمد عبده .

ولد العقاد على صهوة جواد ، وامتلأت مشاعره قبل مولده بقعقعة السلاح ورهج السنابك وصهيل العاديات وهتافات المنتصرين وعويل المنهزمين ، فعاش كذلك ممتلىء المشاعر بها ، نذر لأداء رسالة إنسانية عامة ، وأقبل إلى الدنيا وقد شهر سيفه وحمل صليبه لأداء رسالته التى نذرها أو يدركه مصير الشهادة التى تلقاها عندما تلقى الحياة . عاش قويا مهيبا شجاعا ، فعاش صادقا عفا معولا على نفسه . نضج مبكراً فاهتدى منذ صباه إلى مبدأ طريقه ومضى فيه قدما : لا يلوى على شىء ولا ينوء بعبء ولا يتحول عنه ولا يحاول أن يتحول ، مع طول السفر ووعورة المسلك ، بل ظل يروض قواه بعسير المصاعب ويزداد يقينا بمر التجارب ، ولا يبدو فى أقوى أطواره وأهدئها إلا عند اشتداد الخطر وهو من أشد الناس صونا الأسرار .

لو شهد مطلع النور فى الصحراء لكان له شأن عظيم ولأغنى ما لم يغن كثير من ذوى الشأن بمفرده ، لا يذل لضيم ولا ينام على ثأر ، دقيق الإحساس بالخطر كثير التوقع له بفطرته ، ثم زادته المحن إحساسا به وتوقعا له ، مغرم بالمجهول ، كثير التفكير فيه ، يتقن فروضه ويعد لكل فرض أهبته فى حدوده كمن رأى وسمع . لا يأمن الشر من عدو ، ولا يطمع فى الخير من ولى ، يثق بالناس جميعا ولكنه لا يثق بالإنسان ، خلق للحب والصداقة فكان غامر القلب بالعطف على العالم جميعا ولكن رأى عطفه يبتذل أحيانا فحجبه صيانة له ، وإن بقى قلبه غامر العطف فجرت الأمور بينه وبين

غيره على سنة المروءة والكرامة . حورب وحارب كثيرا فانتصر دائما ولكنه لم يغلب دائما، وهو لا يبدأ بقتال ولكنه إذا دعي لبى ، ولا تطول الجولة بينه وبين مبارزه ، فسرعان ما يهزمه ، ولا عار على أحد أن يهزم أمامه . أحس منافسوه بعظمته فحسدوه وكادوه ولكنهم يخافون بأسه فلا يعيبونه إلى حيث لا يسمع ، وهو — كمثل كل فارس — للمرأة في حياته جانب كبير : أماً وأختاً وصاحبة ، ولقد شغلته طول حياته . أليست المرأة حاملة سر الحياة المحتاجة إلى الحماية ، وماذا كان من عمل الفرسان إلا الحماية فهي شغلهم حتى وقت الخطر كما قال فتى فارس منهم هو عنترة:

ولقد ذكرتك والسيوف نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

بخلت عليه الدنيا بمعظم أسباب السرور ، وإن سخت عليه بكثير من الأمجاد .

شقي بعظمته كما يشقى كل عظيم ولكن ظل حفيظا عليها ضنينا بها غير زاهد فيما ينغصها من شقاء . بل زاده ذلك إيمانا بها وتمسكا بأسبابها، وليس لكبير فيما قدر عليه حيلة، ولا عنه مفر ، ورأى كثيرا من العظماء المظلومين فأقبل يدحض ما علق بهم من أكاذيب ، ويكشف ما خفي لهم من فضل ، وكان ذلك بعض رسالته وبعض عزائه معا . تكربه هموم الجماهير لانطباعه على العطف ولكنه لا يشاركها في مقاييسها وسخافاتها لأنه فوقها . فتنة لنفسه ولأوليائه وأعدائه ، فمن يعرفه حقا لا يملك إلا أن يكون معه أو يكون عليه مادام مطبوعا مثله على الجهاد ، أو هو للتطبع به على استعداد ، فأما الحياد فلا حياد .

والعقاد شخصية ذات بنية ممتازة في تكوينها الظاهر وطبيعتها الباطنة ، حتى لا يخفى اعتبارها على من يراها وإن كان لا يعرف صاحبها إلا أن تكون الأقدار قد جارت عليه . من يرها الأول مرة أو بعد ألف مرة لا يملك إلا أن يرجع النظر إليها كرة بعد كرة ، وقد يرفع يده أو يمدها مصافحاً ليحييه — ولو على غير معرفة — تحية الإحترام والولاء .

قال السيد جمال الدين الأفغاني لتلميذه الشيخ محمد عبده يوما معجبا به « من أي أبناء الملوك أنت؟» ولو رأى السيد الأفغاني العقاد لقال له ما قال لتلميذه. فمع كل اختلاف بين الرجلين كثير في الظاهر قليل في الباطن — تراهما على أتم ما يكون من التقارب في الشخصية والسيرة حتى كأنهما أخوان ، وما أظن مصر في النهضة الحديثة أنجبت أعظم من هذين الرجلين في المهابة والقوة والصراحة والشجاعة والاستقامة وبعد الهمة ثم نبل الغاية وقوة الأثر ، فقد هزا روح الأمة من أعماقها وعلماها احترام العقل والكرامة الانسانية فأعادا إليها كثيرا من الثقة بنفسها .

فللعقاد طلعة أمير وسيرته: طلعة الأمير الذى ولد فى بيت الإمارة ونشىء ليحمل أعباء رعاياه، ويدبر أمورهم فى ميدان الحرب والسياسة، ثم فاته التاج أو هو فاته — استصغاراً لشأنه — وانصرف ليحمل قلنسوة القديس وأعباءه كى يقود رعاياه فى عالم الضمير، ويبقى عقيدتهم ويحفظها عليهم من زعازع الشكوك. وكأنما تركت كلتا الإمارة والقداسة آثارها فيه: فانطبعت بها صورته واطردت عليها سيرته، فسمات كل منهما تتضح على ملامح وجهه ونظرات عينيه وكلماته وحركاته ومعاملاته، وهو من أشبه رجال الفكر برجال العمل فى مظهره ومخبره كما يدل منظره وصوره وأدبه.

طلب عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يوما من الناس أن يدلوه على رجل يوليه، فلما سألوه عن شرطه فيه قال: «إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم».

وهذا المعنى هو ما تمثله شخصية العقاد وسيرته فى صورة وافية وهو يعامل الناس بالغين ما بلغوا من الصغر أو الكبر.

يكون فى مجلس الشيوخ أو مجلس النواب أو المجمع اللغوى، وفى كل منها الكثير من الرجال الممتازين بسماتهم وشاراتهم، فلا تملك نظرك — وأنت تتصفحهم — من الوقوف عنده وكر النظر إليه، إذ تحس أنك أمام شخصية ممتازة فى جملتها وإن لم تعرف تفصيلاتها، أو ممتازة فى مظهرها وإن لم تعرف مصدر امتيازها، وتسمع المحنكين الفصحاء من أعضاء أى هيئة من تلك الهيئات يتكلمون: فيطنبون أو يوجزون، فى أناة أو حماسة، وفيهم المدل بمعرفته وبيانه، والمعتز إلى جانب ذلك بمنصبه الحكومى، أو ثروته العريقة، أو أسرته التليدة أو حزبه ذى النفوذ، ثم تسمع العقـــاد — دون أن تعرفه — يتحدث بينهم بكلماته البسيطة الوجيزة يسلسلها بصوته الممتلىء الهادى فى ثقة لا يشوبها تكلف ولا إدلال، فتسمع الحكمة والجواب المسكت وفصل الخطاب، ومن المهم هنا أنك تحس كأنه يتكلم بسلطان عظيم، فإن بحثت عن مصدر سلطانه العظيم لم تجده إلا فيما وعاه إهابه، فإذا تفقدته خارجه لم تظفر له بأثر، أو لم يكن أول ملك لإسرائيل — كما صور القرآن — إنما ملك إذ اصطفاه الله وزاده بسطة فى العلم والجسم؟

ذلك هو سلطان «صاحب السمو» أو سلطان «صاحب النيافة».

وتراه وهو يعامل مريداً فى سن البنوة له، أو خادما له أو لغيره، أو طفلا أو عاملا فلا ترى إلا رجلا كعامة الناس يلقى أخاه وندده، ويبسط له جناح العطف

والإعزاز، ويعامله على شريعة المروءة والاحترام . ولقد صحبته منذ اثنين وعشرين عاما فما سمعته يقول مرة لأصغر إنسان « يا بنى » كما يدل الكبار على الصغار ، وأكثر ما سمعت للغائب « أخونا وإخواننا » وللحاضر لقبه، أو « السيد » وهو أكره الناس للكبرياء والعدوان والمعتزين بالسلطان ، سمعته مرة يقول عن أحد ولاة الأندلس — وأظنه المنصور بن أبى عامر — : « لقد كنت أحترم هذا الرجل حتى قرأت له قوله : (من عدل بلذة السلطان شيئاً فليس من المروءة فى شىء) فسقط من عينى » ومع ذلك تحس ذلك السلطان.

فما مصدر هذا السلطان الشخصى الذى لا وجود له إلا ما انطوى عليه إهاب العقاد ؟

عملاق آتاه الله بسطة فى الجسم وركبه كما يركب أهل الصراع والجلاد فى ميادين الفروسية وميادين الغرام. قوام فارع لدن ألف، وألواح عريضة ، ووجه يميل إلى الاستطالة ، أبيض وضىء، خفيف اللحم ، مليح القسمات، صريح التعبير عن كل مواجده ، يتحير فيه الفتاء والنشاط كما يبدى إهابه الشفيف — حتى كأنه اليوم شاب، وهو فى الخامسة والستين — وينبى عن طبيعة مناضلة ذات عزم صليب، وسريرة عميقة الأغوار ، جياشة بالعواطف والأسرار ، وتطفو عليه — ولاسيما العينين والشفتين — دلائل خيبة يغالبها الترفع عن الظهور، كى تغوص إلى قرارها فى أغوار سريرته فيغلبها حيناً وتغلبه أحيانا لصدقه، فى هذا الوجه تتألق عينان فيهما سعة، دعجاوان أو أدنى إلى الدعج ، حانظتان لسلامتهما ولمعانهما مع الكهولة وإن كانتا تستعينان على القراءة أحيانا بمنظار، فيهما حنان مكبوح وحزم وديع ، وأحلام ترفرف فى لطف : بعضها سليم وبعضها جريح ، تحفهما أهداب أدنى إلى الطول تحت حاجبين أميل إلى الغزارة ، يعلوهما جبين منبسط يميل أعلاه قليلا إلى الخلف ، ورأسه أدنى إلى الكبر تغلب فيه الاستدارة على الاستطالة، ويحتفظ بكل شعره السبط المرسل المنسرح دائما إلى الخلف ، بكر إلى بعضه الشيب قبل الثلاثين ، ومازال به حتى كاد يستوعبه ، وشعراته البيض لامعة كأنها خيوط الفضة خارجة من المصهر ، وخدان خفيفان من اللحم والشحم بينهما أنف أشم مستقيم مطمئن يسيرا عند اتصاله بالجبهة ، منفرج المنخرين ، وصدغان مستقران، وأذنان تنبسط كلتاهما من أعلى وتضيق من أسفل كصورة الكمثرى مع خفة إطارها الأعلى واطمئنانه ، أما الفك الأسفل فيبدو كأنه صب من الفولاذ : عارضان بسيطان وذقن عريض يندفع قليلا إلى الأمام دون حدة ويعوقه انكسار خفيف لايكاد يرى ، وفم وسط فى انفراجه ، وسط فى رقة

شفتيه وسعة شدقيه ، يقوم ذلك الرأس على عنق فيه طول خفيف يتسق مع القوام الفارع ، ينبت هذا العنق بين منكبين عريضين يسعفان عند الزحام ، يخرج منهما ذراعان عريضتان قويتان لفاوان ، تنتهى كلتاهما بكف عريضة الأصابع بارزة البراجم صلبة العضلات كأنها كسرت ثم جبرت وتحت المنكبين صدر عريض مستقر .

يسير بنشاط ويحرك ذراعيه كالممدودتين فى سمت وعزم دون تكلف ، يصافح بملء يده ، ويتحدث — ساكن الأوصال — بكل وجهه ، ويستعين فى الحديث بحركة يده وأصابعه ، فإذا تحدث متحمسا — لاسيما عند الجدل — فوصل حديثه إلى مقطع الرأى قبض أصابعه داخل راحته بعزم فبدت كأنها صخرة ، أو بسطها بعزم فبدت كأنها سيف ، وقد يدق بها خفيفا على منضدة — إن كانت أمامه — ولكنه يهوى قوياً بجمع يده كأنما هى صخرة يحط بها على رأس غريم ليهشمه ، أو يهوى ببسطة كفه كأنها سيف يحط به على مقتل غريم ليمزقه .

بنية قوية هاجمتها علل واصطلحت عليها هموم منذ الشباب الباكر فنالت منها ، ولكنها — لما ركب فيها من صلابة العزم وشدة المراس — ثبتت لها جميعا ، وحظها من قوة التركيب غير قليل ولكن حظها من صحة المزاج وجيشان الطبع بأسباب الحياة كثير جد كثير . ولهذا بقيت تؤدى — بهمة مثابرة — كل ماحملته من أعباء حتى طور الكهولة — وما بعده إذا شاء الله — كأنما اجتمعت لها حيوية بضعة شبان ، وحسبك منها تمكينها لصاحبها أن يكتب كل عام بضعة كتب ، ونحو مائة مقالة وحديث للصحف والإذاعة ، فإذا حسبنا يسر الكتابة — لطول المرانة ووفرة الذخيرة — كان علينا أن نذكر قيامه على كل شئون معاشه بنفسه لعزوبته وحاجته ، ثم اشتراكه فى عدة هيئات ثقافية لا يتكل فى أداء واجب لها على عذر . وفوق ذلك ما تستلزمه كتابة هذا الفيض من الاطلاع على مئات المراجع ، إلى ما يقرأ حبا للقراءة لا للتأليف وهو مئات ، مع استقطاع يوم الجمعة أسبوعيا للراحة واستقبال زواره ، ثم الراحة والرياضة اليومية وغيرها فى سائر الأيام . كل ذلك لاشك دليل قوة غير يسيرة فى البنية ، وقوة بالغة فى الطبع والمزاج والأخلاق .

وهو — ومن أجلها — إلى جانب تلك القوة مهيب ، ولكن المهابة أشكال وأنماط فمن المهابات ماهو زيف كطلاء العجائن والمساحيق والأصباغ التى تراها على « عرائس حلوى المولد » ونحوها من صور الحيوانات والأشياء المصنوعة من تلك الحلوى الرديئة ، ومن ذلك مهابة المنصب ومهابة المال ومهابة العصبية ومهابة اللقب ، لا ينخدع بها إلا الأطفال الذين ينخدعون بما على صور حلوى المولد من أطلية ،

فلندع عرائس حلوى المولد وأمثالها وما عليها من أطنية لعشاقها الأطفال يأكلونها هنيئاً مريئاً .

وهناك مهابات كألوان الثمرة منبثقة من صميم كيانها متصلة بحياتها ووشائجها ، وهى هكذا خلقت ولا حيلة لها ولا لغيرها فيها ، وهذه هى المهابات التى تنضح بها الطبائع والأمزجة فى كيانات بعض الناس ، ولا تعدمها فى غير الناس من مخلوقات الله . وهذه مهابة طبيعية صحيحة تدل على خصائص معينة فى كيان صاحبها لأنها نابعة من صميم تركيبه متصلة الوشائج بأسباب الحياة وأطوارها فيه ، وإن اختلفت باختلاف الأحوال .

ومن أصحاب هذه المهابات مثلا من يهابه الصغار دون الكبار ، أو الأجانب دون الخلطاء ، ومن مهيب فى وقت الغضب دون وقت الرضا . . .

ومنهم من يصدم النفس بمهابته فيثير فيها الخوف والنفور ، أو يلويها فيثير فيها الطاعة والخضوع ، أو يجتذبها بعطفه فيثير فيها الثقة والإكبار وهذه مهابة العقاد.

مهابة العقاد مهابة طبيعية أنيسة مروضة تنزل من كيانه منزلة الحرارة من النار ، أو الهالة من القمر لا انفكاك بينهما . فهى ظاهرة لا تخفى على ناظر ، ولا يحاول صاحبها أن يخفيها لأنه لا يتكلف كما ستعلم ، ولا يستطيع هو لو أراد أن يخفيها ، لأن جذورها متمكنة فى بنيته مع متانة تركيبه ثم قوة نفسه ونقتها وتعويله عليها وحدها ، ولا حيلة لإنسان فى هذا وإن كان صاحبه ، وإلى جانب أنها نتيجة طبيعية — هى قوة لا ضير منها على أحد ، بل لا ضير منها على عدو حتى يجاهر بالعداء . فهى لدى الأولياء مهابة أنيسة تبعث فى النفس الاحترام والثقة وتمنع التهافت والابتذال . تراه لأول مرة فتحسها واضحة وتخالطه سنوات بعد سنوات فتزول بينكما الكلف — أو تزيلها أنت من نفسك إن كنت ممن يتكلف لأنه لا يتكلف مع أحد كائنا من كان — فتحس هذه المهابة واضحة ، وتراه فى أرضى أوقاته وأحفلها بالدعابة والمزاح والفكاهة فتحس بمهابته ، وقد يهيأ لك عندئذ أن تلك المهابة قد زالت فإذا تفقدتها وجدتها فى مكانها تنبض ، ووجدت آثارها قائمة فى نفسك كعهدك بها الأول مرة بل أشد ، لأن آثارها لا بد أن تنمو على توالى الأيام ، وتتبعها فتراها كذلك عند غيرك . أما فى أوقات غضبه فهى كرب عظيم تخنس منه الشياطين ويستعيذ منه الأعداء والأصدقاء ولاسيما عند التهديد . وأقوى ما تظهر الضوابط والسكينة فى هذه اللحظة لأنها لحظة التصميم .

قالت عنه امرأة ذكية مجربة ما مؤداه « إنه لا يخيف حين يثور ، فإذا سكن فهو العزم المصمم على النهاية الحاسمة ، وهو يحتمل طالما لا يرى سلاحا ، فإذا بان له طرف السلاح فهو إما قاتل أو مقتول » ، ولا ينبئك برجل — ولا سيما فتى — كامرأة ذات ذكاء وتجربة عرفها ، فاعمل حواءطول تاريخها إلا تبين مواقع القوة والرضى وحالاتها في آدم ، وحسن التأتى لكل منها بما وهبها الله من أسلحة ، والفتيان أقرب إليها وهي بهم أوثق .

تسمع الرجال أو الشبان من خصومه الألداء — وهم يتناولونه في حرد ولجاجة ويصبون عليه كل نقمهم مبرقين مرعدين حتى ليهيأ لك أنهم قاتلوه إذا لقوه — ثم يلقاهم أمامك في مهابته الهادئة فإذا الحرد واللجاجة والبرق والرعد قد تلاشت في الهواء ، وإذا هم صاغرون لحكماء العبيد يتملقونه ويتزلفون إليه ، وهو يأبى أن يلقاهم إلا بالزراية والاحتقار ، لأن العداوة لا تخفى على نظرة الفتى أو الفارس الحكيم . ولو دست في أعمق قرار . وغطيت بألف ستار ، وقد ظهرت آثار هذه القوة والمهابة على طلعته وقله منذ شبابه . فكان الكاتب الأول للوفد أيام سعد زغلول ، وكانت هناك الأحزاب التي تكيد سياسته ومن كيادها أن تجمع في صحفها كل من تستطيع من حملة الأقلام لمهاجمته ، فاذا بدأت الحملات برز العقاد لهم بقلمه الجبار فإذا مقالات كالصواعق ، وإذا الأرض ترتج بمبارزيه ومن عبئوهم يبتغون عندهم العزة ، ويتناول أولئك المبارزون العقاد فيمن يتناولون من صحابة سعد فلا يزيدهم العقاد إلا بلاء ، ويلقونه خلال ذلك في مجلس أو شارع فإذا هم مستغفرون منيبون ، وإن كانوا بعد ذلك إلى ما بدءوا يعودون ، ولا يزال الكر من جانب العقاد والفر من جانبهم حتى يلقوا السلاح ، أو يطردهم سادتهم حين لا يرون فيهم عزا ، وكم لقلم العقاد من ضحايا بين أولئك من الكتاب والزعماء . ولذلك أطلقوا عليه في بعض مقالاتهم « الوحش الرابض في عرين الوفد الذي يطلقه سعد على خصومه في الأزمات » وهذه الكلمة — مهما يكن باطلها — لا تخلو من دلالتها الكبرى على آثار مهابة شخصيته ومهابة فله في نفوس أولئك الكتاب .

وقد كان سعد رجلا عظيما وزعيما مطبوعا يقدر الرجال العظماء ، فعرف للعقاد خطره وكفايته ، وغمره بما يغمر به الأب العظيم ابنه العظيم من حب وإعجاب وثقة ، وبادله العقاد مثل ذلك ، وعرفه سعد جيشا للوفد في سبيل الوطن . فضن لذلك به ، واحتمل منه ما لم يحتمل من أعظم أصحابه قدراً ، وكان يحس هذه القوة المهابة ويستشف جذورها في نفسه ، ويلقاه — ككل زعيم مطبوع على زعامة الرجال — لقاء الأب لمهابة ابنه فيباركها ويفخر بها ، ويدخرها ويترقب من ورائها لمجد وطنه خيراً كثيراً ، وقد كان ، فبقي العقاد وفيا في حبه

لسعد وتمجيده وغيرته على مجده حتى الآن ، ومن آثار ذلك قصائده ومقالاته فى المناسبات المختلفة يحييه بها ويبين فضله - إلى جانب كتابه عن «سعد زغلول سيرة وتحية» وهو أضخم تواليف العقاد . ولو لقيه خلفاء سعد لقاء الأب أو لقاء الأخ الكريم لما وقع كثير مما وقع من شرور ، ولكن مقادير جرت وأمور ، فقد تهاونوا فى الأخذ بعزم الأمور على طريقة سعد ، وقبلوا الدنية فى وطنيتهم رأباها العقاد فحمل على عدو وطنهم الذى أيدوه ، وجادلهم وجادلوه ، ورأوا فيه التابع الذى عليه الطاعة فتمرد ، ورأى نفسه الشريك المسئول الذى له حق المشورة والتوجيه - كما كان فى عهد سعد زعيمهم - فعزلوه وعدوا عليه ، فحمل عليهم فيمن حمل حتى أطاح بالعهد الذى أيدوه ، ثم أقبلت دولتهم فكادوه حتى أوشك أن يموت جوعا .

هذه المهابة عند المجاهرة بالخصومة لازمة لصاحبها أشد اللزوم ، لأنها سلاح من أسلحة النضال يرهب به خصومه ، وقد يمنع الصدام فيكفيه شرهم ويكفيهم شره ، فإذا لم يبق إلا الصدام كانت سلاحا نافعا مع غيره وإن لم ينفع وحده ، وهى سلاح طبيعى فى كل بنية حية تملكه ، فإذا نازع من يملك هذا السلاح — من الناس والحيوان — خصما له شهره عليه وناضله به ، كما نرى فى قتال الأسود والديكة ونحوها ، ومن عدم هذا السلاح من الناس والحيوان عند نزاع الخصوم تظاهر به كما نرى فى قتال القطاط والحمائم ونحوها . فأما فى غير الخصومة المجاهرة فالمهابة سلاح قائم عنده ولكنه معلق ، وإن كان قريبا يسير التناول عند أول صيحة نذير .

قدمت أن هذه المهابة أنيسة أو مروضة ومن عوامل أنسها أو ترويضها ما يبطنها من قداسة تلتف جذورها بجذورها فى أعماق السريرة ، وتأخذ منها وتعطيها ، وهذه الجذور كما قدمت قوة فى تركيب البنية ، وقوة أكبر منها فى النفس تحمل صاحبها على احترامها والثقة بها والتعويل عليها وحدها أو أكثر من غيرها ، وكل هذا مما يغرى غيره باحترامه والثقة به والتعويل عليه ، ولا شىء غير ذلك ، وهكذا يراها خلطاء العقاد الأولياء وهكذا توحى إليهم ، بل هذا هو ما توحى به إلى غير خلطائه من الأولياء ، ومن ذلك أن الأستاذ كان يركب يوما ترام مصر الجديدة وإذا شاب مجهول فى إحدى المحطات ، يراه جالسا إلى جانب شباك ويده خارجه ، فتردد الشاب لحظة ثم جمع أمره فقبض على يد الأستاذ فقبلها وولى مسرعاً . وطالما رأيت كثيرا يصافحون أكبر الرؤساء كالأنداد ، فإذا صافحوا الأستاذ حاولوا تقبيل

يده فيأبى ذلك ويقبضها وقد تدفعه الصراحة إلى إنكار ذلك حياء منه وحياء له .

والحياء من أقوى صفاته وفرق كبير بين الخجل والحياء ، لأن الخجل مصدره إحساس النفس بالقصور ، والحياء مصدره الإحساس الشديد فى النفس بالقوة مع الحذر من تمردها على ضوابطها ، وهذا من يقظة الضمير ، وقلما ترى إنساناً قويا يكره البغى إلا وجدته حييا ، وقد وصفت السيدة عائشة حياء النبى — وهو من هو قوة — بأنه كحياء العذراء وهذا الحياء من صفات « الفتى » أو الفارس المطبوع وقد كان المتنبى شاعر « الفتوة » أو الفروسية حين قال :

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تتقى حتى تكون ضواريا

لأن الحياء من شمائل الأقوياء لا الضعفاء ، فأما الضعفاء فشيمتهم الخجل لإحساسهم بالقصور ، وقلما يميز بين الأمرين ، لأنهما متشابهان فى المظهر ، وإن كانا مختلفين بل ضدين فى الباعث والغرض والمخبر ، فحيث يكون أحدهما لا يكون الآخر . وما من رجل قوى حيى مهيب صريح على النمط الذى نصف ، يشعر بأثر مهابته فى نفوس الناس — إلا يسوءه من آثارها مالا مسوغ له لأنه يجرح حياءه ولأنه فضول ، وقد روى أن النبى — عليه السلام — كان ينكر على أصحابه أن يقفوا له ، ويجاهر بنهيهم عنه ويقول مامؤداه : « لا تقفوا لى كما يقف الأعاجم لملوكهم »

والأستاذ يتحاشى آثار مهابته من هذا الطراز فى نفوس خلطائه . لأنها فضول وتكلف ، وقد لاحظ يوما أن ناشئا من مريديه يجلس فى ندوته واضعا رجلا إلى جانب رجل ، فإذا غادر الأستاذ الندوة لأمر وضع المريد رجلا على رجل كما اعتاد ، فإذا عاد الأستاذ أنزل الفتى رجله معيداً سيرته الأولى — وهذه عادة كثير منا أمام من نتكلف له أيا كان السبب — فما كان من الأستاذ إلا أن دعا مريدا لبيبا آخر ، وطلب منه خاليا أن ينبه « السيد » صاحبنا إلى أنه يكره هذا التكلف ، وأن ينبه بقية « الإخوان إلى أن « الأستاذ » لا يسره إلا أن يجلس كل منهم كما يريحه الجلوس .

وهو لا يتكلف لأحد — كبر أو صغر — فاحتفاله بأصغر صغير فى ندوته وغيرها كاحتفاله بأكبر كبير : تزور ندوته يوم الجمعة فى بيته — ولنسمه بيتا إذا شئنا دون أن ننكر على غيرنا أن يسميه ماشاء ، كأن يسميه مثلا « مكتبة خاصة » ألحق بها من ضرورات الأثاث وضرورات المعاش ما يكفى لايواء راهب ، أو يسميه ماشاء على هذ النحو ، فلعل تسميته أصدق من تسميتنا ، وإلا فإذا تسمى شقة ذات أربع حجرات وسيطة بينها هو مثلها ، وكلها تزدحم بأصونة الكتب حتى حجرة الجلوس وحجرتى النوم والشرفات ،

فضلا عن حجرة المكتب، ولا تضم إلا سريراً فى كل حجرة من حجرتى النوم، إلى جانبه صوان للملابس ومشجب، ثم منضدتين صغيرتين للطعام فى البهو تغطى المكتب إحداهما، وبضعة كراسى عتيقة - تكاد تتهافت - للجلوس عند الطعام، وصوان صغير عتيق للأطعمة وآخر لاسطوانات الموسيقى والغناء، وكراسى حجرة الجلوس عتيقة تهافت بعضها وبقى فى أكثرها مسكة، وثلاثة أبسطة وسطى عتيقة فى بعض الحجرات لا تزال متماسكة. أهذا بيت أم مكتبة خاصة؟ لندع التسمية ولنعد للندوة.

تزوره فى ندوته صباح يوم الجمعة من كل أسبوع — كائنا من كنت — لأنه يوم راحته واستقبال زواره، فيستقبلك — لابسا غلالاته — عند الباب: يفتحه لك بنفسه ويصافحك بملء يده ويرحب بك دون كلفة، ويمضى بك إلى مجلسه فى هذه الحجرة التى حدثتك بها، وتجلس فلا تحيات متكلفة بل يفاتحك بما تيسر من حديث بحسب ما يراه أنسب لك: يحدثك مقبلا عليك كله ويقدم لك السجائر ويشعلها لك بنفسه، ويأتى الخادم بالشراب الذى لا يتغير بتغير الفصول (كوب الليمون غالباً والبرتقال قليلا ثم فنجان البن الطيب) وتتحدث فيقبل على حديثك بكل وجهه وانتباهه ويعاملك معاملة النظير — أيا كنت كما قدمنا — فإذا استأذنت لتنصرف استبطأك، فإذا اتجهت للخروج مضى معك إلى الباب وفتحه لك وصافحك مودعا داعيا بالسلامة.

وقد تلقى فى ندوته الوزير والسفير والطبيب والموسيقى والمهندس والمحامى والمعلم والرسام والضابط والتاجر والطالب الصغير والصبى ونحوهم فإذا ما جرى معك يجرى مع غيرك بلا تكلف، حتى تحس أن لا ضيف هناك ولا مضيف بل ندوة خاصة تجمع طائفة من الأصدقاء كلهم أصحابها والأمور تجرى بينهم على أساس الاحترام ومعرفة كل منهم قدر صاحبه.

وتجاهر بما تشاء من رأى فيجد رأيك حظه اللائق به من الاستماع والمناقشة الحرة تأييداً واعتراضاً بالحكمة والحجة، وتسأل عما تشاء فتجاب عنه بصدق وأمانة، وتمزح فيستجاب لمزاحك، وتنكت أو تروى فكاهة فتلقى نكتتك أو فكاهتك ما تستحق دون تكلف، وقد تجد لها الضحكة الجهورية التى تهز، خارجة فى صفاء وقوة من أعماق النفس، وتسمع بارع الأجوبة المسكتة والنكت والقفشات والدعابات بكل أنواعها، وتسمع أشتاتا من طريف القصص والنوادر والمعارف الحكيمة فى كل موضوع، وجوابا عن كل سؤال على البديهة مع الإيجاز والسداد، وتجد احتفالا بتقرير

النكتة والتعقيب عليها كالاحتفال بتقرير مسائل الفلسفة والحكم والفن والتاريخ والاجتماع والأدب ... وتعاين سهولة فى ضبط أعوص مسائلها وتقديرها ووزنها والتأدى إلى مقاطع الصواب فيها كالسهولة فى سرد نكتة خفيفة ، حتى ليهيأ لك أنه لو كلم بتلك المسائل العويصة طفلا لوعى عنه ، وتسمع الجملة القصيرة كأنها كلمة القدر وضعها على لسانه فانطلق بها دون جهد ، لما تكشف من حكمة بالأسرار وفصل الخطاب، وقد تغنيك بما فيها من فائدة ومتعة معا ما لا تغنيك أسفار فى موضوعها ، وأيا كان الموضوع من جلال أو دقة فهو يتحلب به ويسهل دون تردد ولا عناء ويزين ذلك كله مروءة نادرة .

فقد تسمع متحدثا فى مجلسه يتناول خصما من ألد خصومه والعقاد بهتان، فسرعان ما يرحض هو عن هذا الخصم ما بهته به المتحدث كأنه من أولى أوليائه . لأنه صادق يكره الكذب ، شجاع يجاهر بالصدق ، ولأنه يؤمن بالحق ويؤمن بأنه مبدأ كريم وسلاح نافع وحده فى محاربة كل باطل . وقد يجم فى مجلسه فتحس وأنت تعاطفه أن المارد المحبوس داخل القمقم المختوم يتمطى بعضلاته الجبارة تبرما بطول الحبس ، ويوشك أن يهم بالثورة ، ثم يتنبه الساحر فإذا المارد فى قمقمه ساكن مطمئن .

وقد يحدثه أى إنسان بسره خاليا فيقوم له مقام الكاهن فى المسيحية : يعاطفه ويفتيه بالرأى السديد، ويعينه إذا استطاع، ويصون سره فى أعمق مكان ويبقيه مصونا مهما خاصمه بعد ذلك ولج فى خصومته وبهتانه ، وقد يبهته خصم يعرف هو من سره عن طريقه أو عن طريق غيره ما يكشف بهتان هذا الخصم ويقضى عليه، ويبرئه هو من مفترياته، ولكن يعف دائما عن كشف هذه العورات ولا يستحلها لنفسه ولا لغيره ولما تثير فى نفسه من اشمئزاز ، وكأنه يشمئز من رائحة كريهة ، وقد حكم العرب حين أخذوا الشمم من الشم والأنفة من الأنف ، فما الشمم أو الأنفة إلا الترفع عما يشمئز منه الاحساس السليم أيا كان من الفائدة أو الضرر .

ولقد كان طوال حياته شجاعا فى الحق ، بل هو فى شجاعته مثل بين الشجعان ، وتطلع على سيرته فتلمس منه فى كل موقف عزة نفس وجرأة على المخاطر مهما تكن العواقب ، فى سبيل الحق، وهو يوجه ضرباته إذا احتدم الموقف بكل ما فيه من عزم وقوة، ولا يبالى أن يجاب عليها بأقوى الضربات وأقتلها . آمن برسالته الأدبية يافعا فجهر بها بأعلى صوته، ووجه ضرباته بعنف فى كل هدف حيث لزم الأمر، ومن ذلك حملته على شوقى وعلى أنصار الأدب القديم، إذ وقف لهم وحده، ثم أيده مريده الأكبر المازنى، ولم يبال أن ينفرد فى الميدان وحده أمام كل خصومه الأقوياء، حتى دانوا له،

وانتشرت دعوته فى كل مكان تقرأ فيه العربية ، ولقيت كثيرا من الأولياء والأعداء فى كل مكان ، وأجدت عليه شجاعته فهابه أعداؤه ، وانخلعت قلوبهم فرقا من سيفه ، وكفواعنه كثيراً من المكايد والعداوات الظاهرة وإن لم يكفوا عن حربه بكل الدسائس مع مجاملته فى العلانية ، والشجاعة أساس النجاح فى كل عمل ، وقد كانت أكبر عوامل نجاحه فى دعوته الأدبية ، فقد استطاع أن يهز بأدبه روح الأمة من جذورها ، ويرد إليها ثقتها بنفسها لا فى مجال الأدب وحده بل مجال الفن والدين والوطنية ، ولم تشهد الأمة نهضة شاملة للروح المصرية بكل جوانبها ومن أعماق جذورها فى العصر الحديث على يد أحد إلا العقاد فى القرن العشرين ، ونهضتها الماثلة قبل ذلك على يد رصيفه الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن التاسع عشر .

وآمن بالحرية فى إيمانه بالأدب بل هو لإيمانه بها آمن بالأدب ، وقد اعتز بها ورآها لا تتحقق فى نظام سياسى غير الديمقراطية ، فلق من الجهاد فى سبيلها أقسى مما لق من الجهاد فى سبيل الأدب وإن كانت سبيلهما عنده واحدة ، فرسالة الأدباء عنده — مهما تعدد مذاهبهم ومناهجهم وبواعثهم وغاياتهم — هى التبشير بدين الحرية والإنحاء على الاستبداد بكل صوره ، وأيما أديب ينصر الاستبداد لأى علة فهو خائن عنده لرسالة الأدب الذى لا رسالة له إلا الحرية .

وقد آمن بالحرية لأنه آمن بالكرامة الانسانية ، وآمن بالكرامة الانسانية لأنه يحس بموجباتها تملأ آفاق نفسه ، وتموج دواماتها فى كل أفق ، فلا حاجة به مع هذا الإحساس العاتى إلى دليل عليها من خارج نفسه ، ولا جدوى لدليل غيره من خارجها لكى يؤمن الإنسان بها .

وكل ما يحسه يحمله على الاستقامة والثقة بالنفس والتعويل عليها وحدها أو عليها قبل غيرها . إنه يحس بما ركب فى جسمه ونفسه من قوة ، فتدفعه هذه القوة إلى الشجاعة ، وتحمله الشجاعة على الصدق والاستقامة ، وهناك ضبط النفس ، ومصدره هو هذه القوة نفسها ، لأن الضبط فى كل شىء عنوان سلامته وانتظام أجزائه ، فإذا فقدت القوة ضابطها كان هذا عنوان اعتلالها وفوضاها ، وتذير تهافتها وهلاكها . وضبط النفس عند العقاد قل أن يوجد مثله وكأنه ضبط آلة مادية ترى وتمسك ، ومن ذلك — وهو حسبنا مثلا — أنه مرض يوما فطلب منه طبيبه — ضمن ما طلب — أن يخفف التدخين — وكان يدمنه — فتركه مرة واحدة ، وللتدخين سلطان بالغ الجبروت على النفس لا يعرفه إلا المدخنون . وما من شىء فى حياة العقاد مهما يبلغ سلطانه على النفس إلا وهو يمضى فى أدق نظام دون أدنى خلل مهما تكن الأسباب .

فلا عجب أن يؤمن العقاد بالحرية ويراها مقياس كل شيء في السماء والأرض : فالجمال عنده مثلاهو الحرية، والفضيلة هي الحرية، والنظام قرين الحرية، وكل الأشياء إنما تتفاضل بما لها من حرية ، سواء في ذلك الأخلاق والفنون والأجسام .. فلا يفضل خلق خلقا ولا صوت صوتا ولا رقص رقصا ولا شعر شعرا ولا جسم جسما ولا شيء شيئا آخر إلا لأن حظه من الحرية أعظم من حظ صاحبه ، والأدب المطبوع أفضل من المتكلف لأنه أعظم منه حرية في الإبانة عن نفس صاحبه ، والدمقراطية أفضل من الدكتاتورية لأنها تكفل للناس ولأحوالهم من الحرية مالا تكفل أي دكتاتورية ، وقس على هذا كل شيء .

هو حر لأنه قوى ، وهو لايحتمل البغي عليه من أحد لأنه قادر على رده ويأنف من أن يذل له ، وهو لا يبغي على غيره لاعجزا عنه بل صونا لقوته ذاتها عن الابتذال ، ولأنه يعرف مرارة البغي في نفسه فيشمئز أن يصيب غيره به . ولهذا أيضا يشمئز من البغي يقع من أحد على أحد غيره في أي صورة ويحاول رده ما استطاع .

ومن ذلك حبه للدمقراطية ، لأنها تتكفل من الحرية للصغير والكبير بما لا يتكفل به غيرها من نظم الحكم ، ومنه كراهيته للدكتاتورين والدكتاتورية بكل صورها ومذاهبها وتعلاتها . الفاشية والنازية والشيوعية وصور ومذاهب أخرى يجمعها كلها الاستبداد بالناس والأمور ، والبغي على الناس والأمور ، ولأنها إلى جانب ذلك — كما عرف بحكمته — أعجز نظم الحكم عن حل مشاكل الناس ، وشرها أثرا في القضاء على عقولهم ونفوسهم ومصادر ثروتهم بالمسخ ، وتعريض حياتهم للشوه والفساد ، مع كثرة دعاواها الزائفة ، واعتمادها على الطنطنة والخداع ، وإثارة المشاحنات بين الجماعات ، وهي لاتحل مشكلة إلا بمشكلة أعقد ، وتضيف إلى المشاكل القديمة مشاكل جديدة ، وتزيد القديمة إشكالا .

ومن أجل ذلك نصر سعدا طول حياته ، ونصر من بعده حتى خالفوا عن أمره وتعرض من أجل ذلك للموت جوعا ، ومن أجل ذلك ألف سنة ١٩٢٨ كتابه « الحكم المطلق » يبين فيه فساد الدكتاتورية ، ويبين نجاح الديمقراطية وفشل كل النظم الدكتاتورية في الحكم ، ولما قامت الحرب العالمية الأخيرة نصر الحلفاء — لأنهم ديمقراطيون — ضد خصومهم من شيعة هتلر وموسليني لأنهم دكتاتوريون ، وألف كتاب « هتلر في الميزان » سنة ١٩٤٠ يبين فيه تفاهته وتفاهة أعوانه وفساد حكمهم ، ويتنبأ بسقوطه وهزيمة أمته وهي في أوج انتصارها في الوقت الذي كان فيه ساسة مصر ، وكثير من بلاد الشرق والغرب ، على أتم اليقين من انتصارها أخيرا . وصح

ما تنبأ به ، كما أنحى فى هذا الكتاب على الحكم الدكتاتورى عامة ، وتعرض من أجل حملته هذه فى هذا الكتاب وغيره للقتل ، إذ أطلق عليه الرصاص خلال رحلته يومئذ فى فلسطين ، فنجا ولم يكد . وما كان الجواب إلا أن اشتدت حملته بعد ذلك عنفا وضراما .

بل لقد اتهمه خصومه يومئذ بأنه لم يؤلف هذا الكتاب إلا مأجورا للحلفاء ، ومن العجيب أن إحدى حكومات الحلفاء طلبت إليه يومئذ على يد ضابط مصرى يعيش — ثلثمائة نسخة من هذا الكتاب ، لتوزيعها فى بلاد المغرب فأحالها على ناشره ، ولم يجد كتاب للعقاد ما وجد هذا الكتاب . ونسى خصومه أن يعرفونا من دفع للعقاد أجره عن كتاب « الحكم المطلق » سنة ١٩٢٨ ، وفيه حملة على موسلينى الذى كان الإنجليز يومئذ يحتضنونه ، وحملة مثلها على نابليون الذى كان — ولا يزال — كثير من الناس يؤلهونه ، ولم يكن العقاد يرى فيه إلا وصوليا حقيرا رأى أمته تنهض ، فاستثمر نهضتها البناء مجده الذاتى ، ودفع بأبنائها لتحصدهم الحرب ، حتى قضى عليه بعد أن صارت ركاما . ولم يقل لنا خصومه من يأجره على مقالاته ضد كل دكتاتور شرقى وغربى .

ومن كراهيته كل بغى واستبداد أنه لم يكتب كلمة خير عن مستبد فى التاريخ القديم والحديث ولو كان الناس يؤلهونه ، حتى كتابته عن مصطفى كمال (أتاتورك) لها شفيع من اعتداد العقاد بنفسه ، لأنه تنبأ بحركة أتاتورك ومصير تركيا على يديه قبل موقعها بنحو أحد عشر عاما ، ولها شفيع من عمل أتاتورك نفسه ، لأنه هو الذى أنقذ تركيا بعد أن تناهبت الدول أملاكها ثم تناهبتها هى ذاتها . فرد عنها كل عدو بما جمع لها من أهبة فى أمته ، وكان هو صاحب الفضل الأكبر ، أو محور كل فضل فى هذا الإنقاذ ، ومع ذلك سجل العقاد عليه عيوبه بكل أمانة وأظهر اشمئزازه منها .

إنما تدور سير العقاد على رجال كمحمد والمسيح وأبى بكر وعمر وعلى والحسين وخالد وعثمان وسعد زغلول ومحمد على جناح وغاندى وسن يات سن . . وهذا الطراز من هم شرف الإنسانية وضميرها ، بما لهم من عظمة وفضل ، فقد كان لكل منهم رسالة عادت على أمته والإنسانية بالخير ، ولم ينل هو منها إلا الكروب . وكلهم أوقد النار لإنضاج الخبز للجياع حوله ، وا كتفى هو بأن يكتوى بالنار ويموت جائعا ، وترك الخبز كله للجياع دون أن يتبلغ منه بلقمة ، وهكذا يكون العظيم .

وكتابته عن هؤلاء دفع للظلم الذى ألحقه التاريخ بهم ، فمن عادات التاريخ فى الظلم افتراء التهم على الأبرياء ، أو إخفاء كل الفضل ، أو إخفاء أشرفه وإظهار أدناه . ولذلك تصدى العقاد لدحض التهم التى ألصقها التاريخ ببعض هؤلاء الكبار .

وكشف أشرف فضلهم الذى أخفاه ، ومن أوضح كتبه نضحا بهذه الحقيقة «عبقرية الإمام» و «أبو الشهداء الحسين بن على» و «عبقرية عمر» و «عبقرية الصديق» و «ابن الرومى» . . ولم يكتب عن معاوية وأضرابه لأنهم استوفوا أكثر من حظهم فى الدنيا

وقد كتب العقاد هذه السير ليرفع أصحابها مثلا للناس ، تعرفهم حقيقة العظمة ، وتحملهم على حبها وإكبارها والإعجاب بها ، وليعزى هو بها نفسه ، ويمسكها أن تميد ، ويرى فيها صورة له ، وليعبر خلالها عما يحسه هو وعما أحسه كل عظيم بين أولئك من حيف فى زمنه ، لأن العظمة عرضة دائما للحيف والاضطهاد عفوا أو عمدا من أوليائها وأعدائها على السواء ، ولم يكتب أولا عن عثمان ، حين كتب عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من عظماء عصره . ولم يكن هناك سبب - فيما أرى - إلا ما أشرنا إليه ، ثم كتب عنه بأخرة حين ظهر له فضله ، وصد عنه ظلم التاريخ لأنه يكره الظلم ، ووفى الرجل الفاضل ما رأى من حقه فكان «ذو النورين : عثمان بن عفان» بين إخوته «عبقرية الصديق» و «عبقرية عمر» و «عبقرية الامام» .(١)

ليت شعرى أى سبب غير ما أشرنا إليه جعل العقاد يمسك عن كتابة سيرة عثمان وحده بين الخلفاء الراشدين ؟ لو كان الأمر كما يدعى المغرضون هو إرضاء المسلمين — فقد كتب العقاد قبله عن خالد و بلال(١) وهما عند المسلمين دون عثمان فضلا وقدرا ، ولكن ظهر له فضل الرجل المهضوم بعد خفاء — فوفاه حقه مطمئن الضمير لأنه لا يريد أن يقول غير ما يعتقد ، إيمانا بالحق ، وطوعا لما جبل عليه من قوة وشجاعة وصدق كما أسلفنا .

وأكبر من ذلك دلالة على حرية العقاد وتمسكه بالحق وعدم مداراته فيه موقف له مع إسماعيل صدقى فى وزارته الأخيرة ، وهو دليل مروءة نادرة وشجاعه بالغة أيضاً . فنحن نعلم أن إسماعيل صدقى استبد بأمور مصر فى وزارته الأولى فحاربه العقاد حربا عنيفة ، واضطهده إسماعيل صدقى اضطهادا شنيعاً ، وكان ممن عمل مع الملك فؤاد على زج العقاد فى السجن تسعة شهور كما سيأتى ، واستمر يضطهده حتى ترك الوزارة ، وبقى العداء بين الرجلين العنيدين حتى كانت وزارة إسماعيل صدقى الأخيرة ، فعرض مشروعا سياسيا فتصدى له بالحق وبالباطل كثير من أعدائه بل أوليائه ، ولكن العقاد رأى فى المشروع خيرا لوطنه ، فلم يهاجم خصمه زورا كما يعمل كثير فى المواقف الحرجة ، ولم يسكت وهذا حسب عدوه منه ، بل جاهر برأيه صراحة فنشر مقالا يؤيد فيه وجهة خصمه لأنه يعتقد أنها حق ، والخصومة عند العظيم لا تغرى بالباطل ولا

(١) هذه أسماء كتب الأستاذ عنهم ، وله «عبقرية خالد» و «داعى السماء : بلال»

تمنع كلمة الحق . ولا شجاعة أعظم من شجاعة الانسان ضد نفسه ، ولا حرية أتم من حريته أمام شهواته ، ولا مروءة أعظم من مروءته بتأييد عدوه اللدود فى مواقفه الحرجة .

وكذلك ليس حملة العقاد على شوقى والعنف فيها أسباب غير ذلك كما أسلفنا . فهى أسباب خلقية يحمها بغى شوقى على الأدب والأدباء فى عصره ، وامتهانه لكرامتهم وكرامته ، وحربه للأحرار ومحاولته الاستبداد بشئون الأدب كما كان سادته فى القصر يحاولون الاستبداد بشئون الحكم وغيرها فى الوطن ، وقد كانت وسائله كوسائلهم مقتوية يشمئز منها كل رجل كريم .

ومن ذلك موقف العقاد من الملك فؤاد — وهو سيد شوقى وأعظم منه قدرا وأشد خطراً — رآه العقاد يعبث بحرية الأمة فحمل عليه فى مجلس النواب ثم الصحف فقدم للمحاكمة . وراح فؤاد سرا يساومه بالعفو عنه وإسناد منصب كبير فى القصر إليه لقاء خروجه من الوفد ، فترفع العقاد عن أن يبيع ضميره وحرمة وطنه . فحكم عليه بالسجن تسعة شهور قضاها كاملة . وكان ضريح سعد — رمز حرية الأمة وسيادتها — أول وجهات العقاد عند خروجه من السجن . فقد زاره قبل أن يرى بيته ، وألقى بين مستقبليه هناك قصيدته على قبر سعد ، ومنها هذا البيت ينذر به ويبشر :

عداتى وصحبى لا اختلاف عليهما سيعهدنى كل كما كان يعهد

وهذه الثقة بالنفس وكرامتها ، التابعة من أشرف شمائله ، هى ما يسميه خصومه كبرياء ، وقد عموا عن أسبابها وحسن وضعها موضعها . لمصلحته ولمصلحة الضعفاء . عموا عن أنه خلق منتصب القامة مرفوع الهامة فلا يستطيع ولا ينبغى له أن يحنيها ويخفضها ، كما خلق عملاقا فلا يستطيع ولا ينبغى له أن يكون قزما .

ثم لماذا يضيع فضله؟ أ لمصلحته هو أم لمصلحة الطغاة أم لمصلحة ضحايا الطغيان؟ لا مصلحة لأحد فى ضياع فضله ، ومصلحة كل جانب فى بقائه ، فليستبق قوته لنفسه لأنه هكذا ركب ، وليؤدى رسالته . وليستبقها للطغاة لأن الطغيان عدو نفسه وعدو ضحاياه . ولا يتورع الطغاة إلا مكرهين ، وهو قادر على إكراههم ، وفى دفع طغيانهم صلاح أمرهم وأمر الناس . وليستبق قوته للمظلومين لأنه يرد عنهم عادية الطغيان ولا ينالهم منه شر ، وهم أولى أن يباركوا قوته لأنها لهم وله ، وهو لا يقول إلا ما يعتقده ويحياه داخل نفسه وتجرى عليه سيرته ولو تحت السيف . فهو يقول الحق ، ولا يقول إلا الحق ، ولكنه لا يقول كل الحق ، لأنه يشعر بمسئوليته ، ويقدر الخير من وراء كلامه ، فالحق الذى يضر ولا خير فيه لأحد هذيان يأباه الذوق السليم ، والطبع القويم ،

والإحساس بالتبعات، والقدرة على ضبط النفس. وهكذا كان يسير أعظم العظماء في حرصهم على الحق وصيانته عن الأذى والتبذل. وقد عرف منذ صباه بين أسرته بأن رجل (حقاني) .

وخصلة في العقاد تندر في الناس، هي سماحة نفسه وانطباعها على البر والإحساس بوشائج القرابة والصداقة . وبسط حرم العطف يشمل الكبير والصغير وينال منه الولي ولا يحرم منه العدو .

وللصداقة عنده حرمة بالغة القداسة كحرمة العرض عند أكرم الأحرار وأعزهم . فما كان له صديق إلا وفى له طول حياته مهما تقلبت به أو بينهما الأمور . وما خالط أحد العقاد إلا نال حظاً من عطفه حتى الحيوانات . وحسبك أن ترجع إلى ما كتب العقاد عن كلبه « بيجو » في ديوانه « أعاصير مغرب » من شعر ونثر. لتعرف بعد أغوار العطف وبسطتها في نفس هذا الرجل العظيم . فما رثى حميم حميما بأبلغ ولا أوجع من رثاء العقاد كلبه وصديقه « بيجو » ، وهو من أقرب الناس إلى قلوب الأطفال مع أنه لم يتزوج ولم يكن له ولد، وتراه وهم يأنسون إليه وهو يداعبهم ويسلمهم فلا ترى إلا طفلا كبيرا بين أطفال، وهو من أعلم الناس بمداخل السرور والمتعة إلى قلوبهم . وأقدرهم على فقه مواجدهم وأحناهم عليها . وتعرف أسرته حنانه . فتبعد كل طفل مريض في البيت عنه .

ومعاملته لخدمة كأحسن ما تكون معاملة أب لأبنائه أو أخ كبير لإخوته . فهو يبالغ في برهم، ويواسيهم مع قلة ماله بما وسعه من مال . ويحتمل من قصورهم ما يندر أن يحتمل مخدوم لخادم ، بل أخ لأخ دونه ، ولا سيما طباخه « الشيخ أحمد حمزة » الذي لا يزال في خدمته منذ أكثر من ربع قرن . ومن أراد أن يعرفه فليرجع إلى الفصل الذي خصه به في كتابه « عالم السدود والقيود » الذي كتبه عن سجنه . وهو لا يدعوه إلا « بالشيخ أحمد » .

ويتصل بذلك ما قدمت من أنه لا يدعو أحداً باسمه مجردا مهما طالت العشرة بينهما فإن كان له لقب دعاه به ، وإلا فاللقب الذي يشمل به كل إنسان — ولو كان طفلا صغيراً — وهو « السيد » ولا يقول لأحد « يا بني » التي تضع المخاطب أحياناً موضع الصغير من الكبير . وهو « السيد » الحق ، و « الأب » الحق الذي يملأ العين والعقل والضمير .

وهو يعرف من حرمات الناس ما لا يعرفون من حرمته . ذهب المرحوم خليل مطران إلى لبنان ، وسئل عن أدباء مصر فأثنى عليهم وأغفل العقاد . ثم كان حفل تكريم مطران في مصر بعد عودته ، ودعي العقاد للمشاركة في تكريمه . فلو أمسك عن الحضور لكان عدلا . ولكنه أبى، وزاد فألقى قصيدة في تكريمه نشرت في ديوانه « بعد الأعاصير » .

وعيب بعض خصومه الأدباء ظنهم به أنه يعرف لهم من المزايا أكثر مما يجهر به وليس كذلك لأنه لا يقول إلا ما يعتقد، ومن هؤلاء مصطفى صادق الرافعي الذي كان يعرف له العقاد مزايا الإنشاء البليغ دون أن يتجاوزها ، فظن أنه يبخسه حقا آخر يعرفه ، ومن أجل ذلك ولأسباب أخرى — سيكشف عنها التاريخ لا تشرف أدبياً ولا رجلا — هاجم العقاد في مقالات دون أن يمهرها باسمه جمعت في كتاب ، كأشنع ما يكون الهجاء ، على أن الرافعي كان له رأي في العقاد نقيض ما أظهر ، ظل يكتمه حتى استدرجه الأستاذ الزيات يوما إلى إبدائه وشرط عليه كتمانه ، ثم نشره — بعد موت الرافعي — في مجلته (السنة الثامنة — العدد ٣٥٨ في مايو سنة ١٩٤٠) .

وهناك آخرون كالرافعي في موقفهم من العقاد لبواعث كبواعثه أو شر منها ، يقولون فيه غير ما يعتقدون وهناك من يتعصبون لغيره كراهية له هو لا حباً لغيره . ولقد قامت جماعات أدبية ، وصدرت مجلات كان يموت بعضها القصر الملكي لمحاربة العقاد ، فزالت وبقي العقاد وكذلك سيزول غيرها ولكن العقاد سيبقى علماً باذخا بين أعلام الأدب في التاريخ بفضل أدبه وحده بعد كل طعن وكل ثناء .

ولو عرف الناس من حقه ما عرف من حقهم لجنوا خيراً كثيرا ، ولكن أكثرهم جهلوه أو عرفوا أقل فضله . ومنهم من عرفوا ذلك فحسدوه بغياً . ولقد لقي منهم شرا كثيرا ، وعاش — ولا يزال — مظلوما . ونال من التقدير — لوجه الله والأدب — ما لم ينله أديب بيننا ، ولكنه لم يجد التقدير الذي يستحقه حتى الآن إذ لا تجد أحدا أحاط بفضله ، ولم يعرف أعظم فضله إلا قلة من مريديه ولكنهم أدنى إلى الحواريين منهم إلى الصحابة . ومن شر الظلم أن لا يعرف لإنسان إلا أقل فضله ، وقل أن تجد من يعرفه شاعرا مع أن له تسعة دواوين شعرية ومع أن شاعريته أعظم ملكاته وموجهتها ، ولست أريد بشاعريته ما تدل عليه دواوينه فكل كتبه ومنها ستون مطبوعة إلى جانب دواوينه التسعة المطبوعة تتفجر بشاعريته وحسبك الملحمة الكبرى « أبو الشهداء » ولو ضاعت كل دواوين العقاد وبقيت كتبه لدلت على شاعرية فذة نادرة بين أعظم الشعراء . هذا العقاد أو هؤلاء العقاد مزاج عجيب من الشاعر والفيلسوف والرياضي والعالم والمتصوف والرائي seer ، فعبقريته واسعة متعددة الجوانب متعددة الملكات متعددة المشاغل والاتجاهات ، وهي كعبقرية الإسلام في بسطتها وقوتها وشمولها لكل آفاق النفس الإنسانية وانتظامها أحوال العالم وما وراءه وأحسب العقاد لو نشأ على غير دين ثم عرضت عليه الديانات لما اختار إلا الإسلام ، لأنه أوفقها لشخصيته وعبقريته فهو — مع بسطته وشموله — ما يناسب عبقرية العقاد وشخصيته كما بينت —

الدين الوحيد الذى يصح أن نسميه «دين الفتوة» فهو أنسب الديانات لفتوة العقاد

أو هو كالشعب الإنجليزى فى شخصيته وعبقريته معا . من حيث بساطته وتعدد جوانبه وتماسكها وشمولها لكل قوة لازمة بالقدر اللازم .

أو هو فى عبقريته وشخصيته كصورة الإله الهندى فشنو ذو الأيدى المائة الحافظ عند البراهمة للكون .

وما قرأت عملا للعقاد ولاسيما أعماله الكبار إلا رأيت صورة كتيبة «البانتسر» فى الحرب العالمية الألمانية : وفيها المشاة والمدفعية ورجال الطيران والهابطين بالمظلات وكل ما يلزم من أسلحة القتال المختلفة المتعاونة جميعا فى وحدة مستقلة .

فشمائله الشخصية وملكاته العقلية برلمان جامع لمختلف الكفايات .

وهذا سر اتزانه فهو قوى ولكنه لا يندفع فى اتجاه واحد مهما تكن الأسباب وهذا ما جهله الدكتور تشارلز آدمز حين كتب عنه فظن أنه أقل تجديدا وعصرية من الدكتور طه حسين ، وخدعه اندفاع إحدى كفتى الميزان عند الدكتور فظن ذلك رجحانا فى العصرية ، ولم يفطن إلى خفة الصنجات فى الكفة الأخرى البعيدة عنه ، كما خدعه ثبات إحدى كفتى الميزان عند العقاد فظن خفة ما فيها من التجديد والعصرية ولو فطن إلى ما فى الكفة الأخرى من أثقال لعرف سر الاتزان ، ولو قلب ما فى الكفة القريبة عند هذا وعند ذاك لرأى فى كفة العقاد من التجديد والعصرية أضعاف ما فى كفة الدكتور طه حسين . وإن العقاد أكثر جوانب وأشد رعاية للتبعات . ولكن معظم المستشرقين أعاجم العقول والأذواق أيضا .

وكثير من الناس يقرنون أو يوازنون بين الرجلين لأنهما أشهر أدبائنا ولكن قل أن تجد فى كفة ميزانهم شيئا بل قل أن تجد لهم ميزانا أمينا ، بل غير أمين ، والذين يعمدون إلى ذلك يظلمون أنفسهم ويظلمون الأديبين . ولكن الأدب عندنا كغيره من المناهل ، بل هو أكثر من غيره فى تعرضه على الدوام لأن «يلغوص» فيه كل زنيم ملوث اليدين والعقل والضمير .

ولقد استفاد بهذه الشمائل العقادية كل ميدان عمل فيه العقاد ، وأهمها ميدان الأدب أو الفن أو الثقافة بعامة وهو هنا حسبنا . فلم تعرف عصور العربية دولة ذات سلطان وكرامة للأدب والفن والثقافة وأهلها على النحو الذى عرفه هذا العصر ، ولم تتسع دولة الأدب فتستوعب من الموضوعات وأساليب التعبير عنها ما استوعبته فى هذا العصر ، وأكبر الفضل فى ذلك لشخصية العقاد وعبقريته معا ، فهو يضع رأسه مع أعلى الرؤوس بشىء واحد هو الأدب ، ويضع رؤوس رجال الأدب والفن والثقافة بعامة مع أعلى الرؤوس الإنسانية فى الميادين الأخرى .

بالأدب وحده يعتز ، وبرسالته وحدها يؤمن . وقد مد دولة الأدب لبسطة شخصيته وبسطة عبقريته حتى شملت كل شيء في السماء والأرض . لأن الأدب عنده هو التعبير عن النفس الإنسانية على اختلاف ما يتقلب عليها من أحداث السماء والأرض . فكل شيء في الوجود صالح لأن يكون موضوعا أدبيا . ولقد انتظم أدبه من الموضوعات ما لم ينتظم أدب أي أديب غيره في العربية منذ امرىء القيس حتى الآن ، وهو صاحب دولة عظمى في عالم الأدب لم تعرفها العربية وقل أن عرف مثلها إلا لأفذاذ من الفاتحين في أدباء العالم قديما وحديثا ولو كانوا ممن أسعفتهم مناشئهم وأممهم وعصورهم بخير مما أسعفته به أحواله ، بل لقد فتحها على كره من منشئه وأمته وعصره ، ولو ابتلى غيره ممن دونه شخصية أو عبقرية بما ابتلى — لما أدرك ما أدرك هو من فتوح عظام ، ودولته دولة الرجولة ، وهي على بسطتها رضي لكل ملكة ولكل طور عند الإنسان فهي ترضي الفكر والشعور والخيال والعاطفة والضمير وحب الفضائل ، وتعزز في النفس الحب والإعجاب والإيمان . وفيها رضي المحافظ والثائر ، والكبير والصغير ، والمرأة والرجل ، وكل طراز ومرحلة.

ولم يكتف بأن يمد دولة الأدب العربي إلى أبعد حدود الوجود بل وضع لها شريعة شاملة لمعظم أمورها ، وهي شريعة وجيزة مرنة يمكن تلخيصها في كلمات ، تصلح لكل مكان وزمان ، لأن منبعها فطرة الله التي لا تتغير أصولها ولا نواميسها باختلاف الأمكنة والأزمان ، وإن تغيرت فروعها وظواهرها لتلائم كل ما حولها من مكان وزمان .

وخلاصة هذه الشريعة هي « التعبير الجميل عن الشعور الصادق » وتختلف وتتجدد بعد ذلك مدارس الأدب ومناهجه وفنونه وقوالبه ولغاته ما وسعها الاختلاف والتجدد ، بحسب البيئات والأمزجة والملكات ، ما دامت في إطار هذه الشريعة الحديدية ، الشاملة لجميع آفاق النفس الإنسانية وشتى ما تحتويه من ملكات ، وما تفيض به ما يرد عليها من السماء والأرض . وليكتب من شاء ما شاء كما شاء ، فهو أديب حق طالما كان في حدود هذه الشريعة : شريعة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ولا عبرة بأن يخالف أو يوافق غيره ما دام لا يعبر إلا عما يحس تعبيرا جميلا ، ويقال في كل فن وكل حياة ما قيل في الأدب .

كان العقاد أول من نادى بهذه الشريعة فلم يصحح الأدب وحده ، بل رد إلى الفطرة الإنسانية حقها الذي ضيعه الناس فضاعوا وأضاعوا . إذ كان الأدب قبله محسنات ومجازات لا تمت إلى الفطرة بصلة ، بل صحح بذلك النظر إلى الناس والأشياء

فى العالم جميعا ، وحبب إلى الإنسان الصدق والأمانة مع نفسه وغيره ، وأغراه بالبساطة والصراحة فى التفكير والحياة ، ليتجه إلى غايته قدما من أقرب الطرق إليه ، ورغبه فى الحق والقوة والجمال حين يشعر وحين يقول وحين يعمل لتكون أقواله صورة أعماله ، ولتكون أقواله وأعماله جميعا صدى مشاعره .

أو هو بالإجمال دعا الانسان إلى الولاء لنفسه « كن أنت » ولعالمه « انظر إلى الكون وأنت فيه » — دعاه ليتلقى ينابيع الحياة هنا وهناك من داخله ، فجعل الحرية تشرق فى نفس الإنسان وفيما حوله كى يتجه على نورها إلى الله عن طريق الأدب أو الفن وهى طريق لا تعارض دينا بل تساير كل الأديان .

وهذه هى رسالة العقاد أبى الأدب والنقد العربى الحديث ، رسالة أدبية فنية أخلاقية ، لأن العقاد يرى أن الحياة والكون وما اشتملت جميعا عمل فنى ، من خلق فنان عظيم . فهى مظهر للتآلف أو التنازع بين الحرية والضرورة ، أو بين الجمال والمنفعة . أو الروح والمادة أو أفراح الفن وأوزانه ، قوى مطلقة وقوانين تحكمها ، وكلما ائتلفت هذه وتلك اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة صفاء الروح ويسير بالقيود أغوار الحرية ، وهذا الائتلاف هو دستور الفن الإلهى المحيط بكل شىء . وهو يدعونا لنجعل من القانون حرية ومن القيد حلية ومن الثورة نظاما . ومن الواجب شوقا وفرحا وماغاية الحياة إلا الجمال وليس الجمال إلا الحرية ، وهذه وجهة القصد الإلهى .

هذه الصورة مسودة خفيفة تحت المراجعة والتنقيح والتكبير ، رسمها فى عجلة شاد بادىء فى الفن — رسمها بقلم الرصاص لأنه لم يحمل الفرجون بعد . وقد تجد انحناء فيها حيث تجب الاستقامة ، أو خفة حيث يجب الضغط أو نحو ذلك ، فإذا أخذتها بهذا الشرط فقد لا تعدم فيها حظا من دلالة . وإن أهملتها فلا علها ولا عليك . وأرجو أن تجد فيها ومن سائر كلمتى وما زودتك به من صور شمسية وتعليقات خلال المختارات عونا على رحلتك ، ومهما يكن فإن الغاية هى هذه المختارات وما وراءها . فوداعا وإلى اللقاء فى فرصة أسعد وأرحب مع رسالتى المسهبة عباس العقاد كما أعرفه . ونمضى إلى الغاية على بركة الله .

كوبرى القبة

محمد خليفة التونسى

القسم الأول

الديوان

١ — مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فإن كان للسكوت عن الخوض فى أحاديث الأدب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة فى أصوله وفنونه : أخصها الأمل فى تقدمه ، لالتفات الأذهان إلى شتى الموضوعات ، ومتنوع المباحث ، والحذر عليه من الانتكاس ، لاجتراء الأدعياء والفضوليين عليه . وتسلل الأقلام المغمورة ، والمآرب المتهمة إلى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل ، وتوقى تلك العلل ، وهو كتاب يتم فى عشرة أجزاء ، موضوعه الأدب عامة ، ووجهته الإبانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة . وقد سمع الناس كثيراً عن هذا المذهب فى بضع السنوات الأخيرة ، ورأوا بعض آثاره وتهيأت الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه ، والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابه ومن سبقهم من المقلدين ، فنحن بهذا الكتاب فى أجزائه العشرة — وبما يليه من الكتب — نتمم عملا مبدوءاً ، ونرجو أن نكون فيه موفقين إلى الإفادة ، مسددين إلى الغاية .

وأوجز ما نصف به عملنا — إن أفلحنا فيه — أنه إقامة حد بين عهدين ، لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما وأقرب ما نميز به مذهبنا أنه مذهب إنسانى مصرى عربى : إنسانى ، لأنه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة ، ولأنه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الإنسانية

---

(١) لم يظهر من « الديوان : فى النقد والأدب » إلا جزآن : طبع أولهما فى يناير وثانيهما فى فبراير سنة ١٩٢١ وأعيد طبعهما بعد شهرين ، وقد اشترك فيه الأستاذ العقاد أبقاه الله ، والأستاذ المازنى رحمه الله ونستطيع أن نعد ما كتب الأستاذان الكبيران بعد ذلك فى النقد والأدب امتدادا للديوان كما أرادا له ، وإن لم يجتمع فيه الصديقان ، ولم ينشر تحت هذا العنوان ، بل إن ما كتبه الأستاذ العقاد وحده ليعادل أربعين جزءا من هذا الحجم ، فالغاية قد تحققت ، ولم يتغير فى الأمر غير العنوان ، وتضم هذه المختارات كل نصيب العقاد فى الجزئين (انظر المقدمة)

عامة ، ومظهر الوجـــدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى ، لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية . وعربى ، لأن لغته العربية . فهو بهذه المثابة أتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منذ وجدت ، إذا لم يكن أدبنا الموروث فى أعم مظاهره إلا عربيا بحتا ، يدير بصره إلى عصر الجاهلية .

الأستاذ العقاد فى سنته الثانية والثلاثين عندما كتب هذا الديوان فى أواخر سنة ١٩٢٠

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى أن تحطم كل عقيدة أصناما عبدت قبلها . وربما كان نقد ما ليس صحيحا أوجب وأيسر من وضع قسطاس الصحيح وتعريفه فى جميع حالاته ، فلهذا اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة ، ووقفنا الأجزاء الأولى على هـذا الغرض . وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لأقدارها . فإن أصبنا الهدف وإلا فلا أسف ، وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانا .

الجزء الأول

شوقى فى الميزان

---

٢ — توطئة

ضجة مضللة

(ا) كنا نسمع الضجة التى يقيمها شوقى حول اسمه فى كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات فى البلد لا استضخاماً لشهرته ، ولا لمنعة فى أدبه عن النقد ، فإن أدب شوقى ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه فى اعتقادنا أهون الهيئات ، ولكن تعففاً عن شهرة يزحف إليها زحف الكسبج ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طى الضريح ، ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين إذا ازدروا شيئاً لسبب يقنعهم ، لم يبالوا أن يطبق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبجيله ، والتنويه به . فلا يعنينا من شوقى وضجته أن يكون لها فى كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة .

البواعث الأخلاقية

(ب) وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغدا لولا أن الحرص المقيت ، أو الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الأخلاقية من كل إنسان ، وذهب به مذهباً تعافه النفس ، فإن هذا الرجل يحسب أن لا فرق بين الإعلان عن سلعة فى السوق والارتقاء إلى أعلى مقاوم السمعة الأدبية والحياة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين أن الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة أن يشترى ألسنة السفهاء ويكم أفواههم ، فإذا استطاع أن يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير ، والطبول والزمور ، فى مناسبة وغير مناسبة ، وبحق أو بغير حق — فقد تبوأ مقعد المجد ، وتسنم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ، وسحقاً للقدرة والانصاف ، وبعداً للحقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياء ، فإن المجد سلعة تقتنى ، ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل للناس عقول ؟؟

(ح) ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقى ممن لا يمدح

جناية الصحافة

الناس إلا مأجوراً . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة ، المأجورة نعنى بها بعض الصحف الأسبوعية ، وعرف من لم يعرف أنها ما خلقت إلا لثلب الأعراض، والتسول بالمدح والذم ، وأن ليس للحشرات الآدمية التى تصدرها غير فضلات الجبناء وذوى المآرب والحزازات، خبر مسموم تستمرئه تلك الجيف التى تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الأرض ، فى بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جوعا ، أو تواروا عن العيون . هذه الصحف الأسبوعية ، وهذا شأنها ، وتلك أرزاق أصحابها — تكيل المدح جزافا لشوقى فى كل عدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر أو أثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل الأسباب ، واقتسار الفرص ، فإن ظهرت له قصيدة جديدة وإلا فالقصائد القديمة المنسية فى بطون الصحف . وإن لم يكن شعر حديث ولا قديم فالكرم والأريحية والفضل واللوذعية . وإن ضاقت أبواب الدعاء والإطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال عليه بالشتم، ويعير بالتقصير عن قدر شوقى والتخلف عن شأوه . وهكذا حتى برح الخفاء وانهتكت الدسيسة . والعجب أن يتكرر هذا يوما بعد يوم ، ويبقى فى غمار الناس من يحتاج إلى أن يفهم كيف يحتال شوقى وزمرته على شهرتهم ، ومن أى ريح نفخت هذه الطبول .

إهدار القيم

(٩) وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ، ويعلمون أنها آفة وأى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة، وتقيمها وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة — إلا شوقى ؛ فإنه يعتدها آلة شرف، وأحدوثة حسنة، فهو يغمس نفسه فى تقريظها ويستزيدها منه، والطامة الكبرى أن ينصب عجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس : ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الأوباش فى خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ، ويود أن تكتم عليه . ونقول فى مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ، ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الإنسانية وشمم أفذاذ العبقرية . فأما أن تكرم البطالة كما تكرم جلائل الأعمال ، وأن يدعى الناس إلى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الإحسان والمروءة ، وأن يتنادى إلى الاحتفاء بناهشى الأعراض كما يحتفى بمهذبى الأرواح وهداة العقول ، وأن يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور — فتلك الهاوية التى لا يبدو قرارها ... ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟ شعراؤها — الشعراء فى كل مصر عشاق المثل

الأعلى ، وطلاب الكمال الأسمى ، لا يرضون بما دون غاية الغايات مطمحا لإعجابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزءا ... ألا إنه والله للعار وشر من العار . ولقد استخف شوقى بجمهوره ، واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخر الصحف سراً لسوقه إليه ، واختلاب حواسه ، واختلاس ثقته حتى يسخرها جهرة ؛ وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده أجرة سوقه واختلاسه. وأقسم لو فعلها رجل فى أوربا لما قدر أن يمكث بعدها أسبوعا واحدا فى بيئة محترمة، ولئن لم يعرف شوقى مغبتها أدبا زاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر — ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شىء ولا يؤنف فيه من شىء ، ولا يصد المرء أن يخلع فيه عاريا إلا اتقاء طوارىء الجو وعوارض الحر والبرد ، أما الحياء فلا ولا كرامة .

جناية الحرص على الشهرة

(هـ) إن امرءاً تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى مم يستنكف فى سبيل بغيته ، وأى باب لا يطرقه تقربا إلى طلبته ، والحقيقة أن تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ، ورد به كل مورد ، وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحا للتفصيل ، ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ، ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم ، نقول : إن تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق ، وقد وجد فى مركز أمكنه من قضاء هذه اللبانة ، إذ كان أشبه بملحق أدبى فى بلاط أمير مصر السابق ، وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط . فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل ، وتتحاشى أن توسع صفحاتها لنقده ، كما توسعها لنقد غيره .

الأقلام المريبة

(و) وأنت إذا قلبت الصحف القديمة رأيت فيها مئات المقالات فى نقد الأدباء المشهورين كتابا كانوا أو شعراء . ولا ترى اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثن مقالتين أو ثلاثا بدأ بها المويلحى نقده فى صحيفته «مصباح الشرق» ثم قطع سلسلتها وهذا أدعى إلى الريبة . وكان فى أمانة شوقى وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والأدباء . فكان شوقى

يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالأدب ، ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه فى الصحف ، ويلغطوا فى المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحداً واحداً وأكثرهم أحياء يرزقون .

(ز) أضف إلى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم إياه فى العادات الخصوصية عصبية الآفة والمنادمات الليلية وهم غير قليل .

(ح) وأضف إليهم من اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف قياس الأدباء والألقاب فمن هؤلاء من كنت تسألهم ترتيب الشعراء فيقول لك : بمقاييس البلاط أولهم محمود سامى باشا البارودى (لأنه باشا عتيق) ، وثانيهم إسماعيل صبرى باشا (لأنه أحدث عهدا بالباشوية والوزارة) ، وثالثهم أحمد شوقى بك (لأنه بك متياز) ، ورابعهم حافظ بك إبراهيم (لأنه أحرز الرتبة أخيراً) ، ويلى ذلك خليل أفندى مطران (لأنه حامل نيشان) ، فطائفة الأفندية والمشايخ وهلم جرا .. كأنما يرتبونهم فى ديوان التشريفات ، لا فى ديوان الآداب !!! فبذلك وما شاكله اعتاد الناس أن يسمعوا اسم شوقى مشفوعا بأفخم الألقاب ، غارقا فى صيغ الإطناب والإعجاب، وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه إلا أن تكرر تلك الصيغ فى كل مرة يذكر فيها اسمه فى كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب، وشاعر العرب والعجم ، وأمير الشعراء ، وسيد الأدباء ، وليت شعرى ما ضرورة هذا التكرار كله إن كان مفهوما بذاته ؟ .

ولما رسخت هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة وأشباه العامة ، ومن يجاملون السمعة والوجاهة ، فتناقلوها ورددوها — ولم لا يصدقونها ويرددونها وأكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم إنما يعرفه بالسماع ويلقنه بالإشاعة ؟ فإن كان فى الأمر موضع للعجب فهو أن تسمع ثناء متكرراً ولا تسمع نقداً — مع أن الإغراق فى الثناء أحجى أن يغرى بالمناقشة ، ويكثر من النقاد ، ومتى علمت علة السكوت فقد زال موضع العجب .

(ط) وأظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المعذب بمرض الصيت ، فغلبه طبيعة الدكتاتورية الشك وزاده شحاوقلقا ، فأصبح لا يقنعه أن يعلل بالدهان ويؤكد له ومحنة السن التفرد والرجحان حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ،

فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول . ولا ينادى باسم ، ولا تقرن إلى شهرته شهرة ، وإلا فعقوبة من يرتكب جريمة الإجادة معروفة ! وما أطول عذابه إن لجّ به هذا الوسواس ! وإن المحنة لتستدر الرحمة ولكن أرحم الناس خليق أن يضحك ممن يخال أنه يعقم الطبيعة ، ويسد الآذان ويضيق رحب الفضاء بالأجرة .

ولو شئنا لاتخذنا من كلف شوقى بتواتر المدح دليلا على جهله بأطوار النفوس ، فإن الآذان أشد ما تكون استعدادا لقبول الذم إذا شبعت من المدح ، وأسرع ما تكون إلى التغير إذا طالت النغمة ، وإذا تعود الناس أن يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن إنسان تاقوا إلى سماع كلام عنه من ضرب آخر ، ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة ، وأكبر ذنبه عندها أنها أفرطت فى محاباته ؛ فهل يدرى شوقى أنه يؤجر أذنابه على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة فى مدحه ؟ إنه لا يدرى ولا يبرىء المريض أن يدرى بدائه . وعلى نفسها جنت براقش . فنحن نكتب هذه الفصول ، لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حيلتهم ، ووهن أسلحتهم ، ونضطرهم إلى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأسا من صلاحها فى هذه الأيام ، إذ يعلمون أنها لا تعصم من النقد الصحيح ، ولا تموه على الناس أقدارهم إلا ريثما تنكشف أسرارهم .

(ى) ونقول لشوقى إن سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر . فإن كان يكربه حكم الزمن أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ، ولا يشتفى إلا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلاشفى الله نفسه من غيظها ، ولا أبرد عليها وغرة قيظها ، وإنه ليلذ لنا أن نكون نحن حربه وبلاءه ، وأن نستطيع الإدالة للحق من الباطل فى غرض من الأغراض ، فإنها لذة نادرة فى هذا العالم .

وإنه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه . فإن أبلغ ما يكون العيب إذا كان فاشيا . وأضر ما يكون إذا كان متخذا نموذجا للإحسان ، وقياسا للإتقان . وليس قصارى الأمر أن يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن إنها قصيدة رديئة فإن الذوق والتمييز إذا اختلا لم يكن اختلالها فى الأدب وحده .

(ك) وأنت إذا استطعت أن تهدى الطبقة المتأدبة من أمة إلى القياس الصحيح
إصلاح الأدب في تقدير الشعر فقد هديتهم إلى القياس الصحيح فى كل شىء، ومنحتهم
إصلاح للحياة مالا مزيد لمانح عليه ، وإن الأمم تختلف ما تختلف فى الرقى
والصلاحية ثم يرجع اختلافها أجمعه إلى فرق واحد : هو الفرق فى الحالة
النفسية ، أو بالحرى الفرق فى الشعور ، وفى صحة تمييز صميمه من زيفه إذا عرض
عليها فكرا وقولا ، أوصناعة وعملا . فليس إصلاح نماذج الآداب بالأمر المحدود ،
أو المقصور على القشور ، ولكنه من أعم أنواع الإصلاح وأعمقها .

(ل) وسنتناول شعر شوقى قصيدة قصيدة ،أو معنى معنى ،حتى نتبين الأثر جليا
فى تحول الآراء ، وسلامة القياس ، وسيرى القراء أننا نغلظ له
المنهج البلاغ ونصحه صخا شديدا وكذلك ينبغى أن يجزى الزيف والدسيسة ،
والاستخفاف بالعقول ، والاستطالة على الناس بالمقدرة على كم الأفواه وتسخير
المأجورين .

على أننا لا نحتاج أن نقول إن ذلك ليس بمانعنا اعتزام الحق ، والتزام
الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارىء ليقتنع بما
نقول فإننا لانسأل أحدا اقتناعه ، ومن كان يحتكم برأيه إلى غير الحجة القاطعة
والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه ، فما تعودنا أن نوجه لمثله كلاما وإنا لبادئون .

٣ — رثاء فريد

(ا) أصاب شوقى حين قال إن قصيدته فى رثاء فريد من خيرة قصائده .
مقياس الشعر فإنها فى مستوى أحسن شعره الأول والأخير ، وهى صورة جامعة
فى الجيل الماضى لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة
لهتف لها المخلصون من المعجبين به ، والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات
الصحف ، ولكانت حجرا فى بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذى كان
يشتهر به الشاعر فى تلك الفترة، وفيها مزاياه ومحاسنه التى لم يكن للشعر مزايا
ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضى عهد ركاكة فى الأسلوب وتعثر فى الصياغة تنبو
به الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق إلى جملة مستوية
النسق، أو بيت سائغ الجرس ، فيسير مسير الأمثال ، وتستعذبه الأفواه لسهولة

مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمات و مرونة اللفظ أصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الأساليب ووعورة التعبير بالغة المقبولة — فإذا قيل إن هذه القصيدة يتلوها القارىء « كالماء الجارى » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . وإذا اشتهر شاعر بالإجادة فليس للإجادة معنى عندهم غير القدرة على «الكلام النحوى الحلو» وهذه هى قدرة شوقى الذى مارسها واحتال عليها بطول المران والتى هى مزية قصيدته فى رثاء فريد وفى أحسن قصائده .

ب — مضى الجيل الفائت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة ، والرسائل الرصينة ، وأخرجت المطابع مئات الكتب التى صاغها أكبر كتاب العرب وشعرائهم ، وانتشرت الصحف ، فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها «النحوية الحلوة» ، وترجمت الأسفار الإفرنجية أو اطلع عليها الناشئة فى لغاتها ، فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفنى والأدبى ؛ وسهلت الأساليب لكثرة ماوردت على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال ، فتعود القارىء أن يبحث عن المعنى ، بل لا يكفى القارىء المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله ؛ فمزية شوقى عند هذا الجيل الناشىء من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لتبحث عما وراءها .

عوامل النهضة الادبية

(ح) ولهذا انطلق يلقى إليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لهم إلا رنة ذلك الصدى ، وطفق أذكياء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة فى ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغترارا بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : «ماذا أصاب شوقى؟» ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل إليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيرا من هذا الشعر ، وقد يعزون الاختلاف إلى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ، ولو كلفوا أنفسهم مئونة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى ، وحديثه الذى يغصبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون — لعرفوا موضع وهمهم ، ولعلموا أن شوقى الأمس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

ما تغير ومالم يتغير

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب فى ذلك ولا فى بقائهم على إحلال شوقى محله الأول مع انحدار شعره فى نظرهم فانهم يرون منزلة شوقى بالعادة التى لم تتغير منذ قدروه للمرة الأولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى

نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمد شوقى فى مكانه لأنه جعل إطراء الناس غايته ، فلما بلغها لم يحس فى نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس أن القارىء يرتقى فى الاختيار أضعاف ما يرتقى الشاعر فى الأداء والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الأربعين فإن أخصب أيام الشعر أيام الشباب . وإذا ارتقى فإنما يكون ذلك باحتثاث الطبع ، وإدمان الاطلاع ، والتزيد من المعرفة ، وشوقى لم يجد من نفسه ولا من الناس داعيا إلى ابتغاء المزيد ، وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد أحس شوقى بالتغير من حوله فأداه أن يستدركه ، وأعيته الزيادة فى سن التقهقر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كلما خيف عليها الكساد ، ولما سئل عن غرضه من قصيدته فى فريد ، وقرىء له فى نقدها ما لا يحب بهت على ما سمعت ، وقال : تلك قصيدة أردت بها الكلام فى فلسفة الموت .

فلننظر إذن فلسفة الموت التى استنبطتها حكمة شوقى ..

فلسفة المستجدين

(٤) نعود أيها القارىء إلى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين إلا كل ما هو أخس من بضاعتهم وأبخس من فلسفتهم . كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز ، إذ ينادون فى الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ، الذى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا التقاه » الخ الخ .

تلك أقوال الشحاذين ، وهذه أقوال (أمير) الشعراء :

كل حى على المنية غاد ... تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الأولون قرنا فقرنا ... لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم ... غير باقى مآثر وأيادى

الخ الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار ، ونزع فيه إلى الاستقلال بالرأى ، فمعناه أحط من ذلك معدنا ، وأقل طائلا ، وأفشل مضمونا ، والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية : « كالزبيب من العنب ، و « ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرا . وأكثره أتفه من هذه الطبقة . فالقصيدة إما

بيت حذفه وإثباته سواء ، أو بيت حذفه أفضل ، مثل إخباره بأن جر النعش فى مركبة أو حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زيدت جلالا منذ كانت ، ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذى ما أحسب أحداً يمر بقبر فيذكره إلا انقلب الاعتبار والهيبة فى نفسه هزءا وعبثا ، وذلك حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو علم الحق أو منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر فى جغرافية شوقى الأخروية : «إنه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموت إلى طريق الآخرة ، لئلا يضل أحدهم النهج ، أو يصطدم بصخرة فى دروب الموت ! » ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم أيقاظاً ونياماً ، كأنما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهوة :

وعلى نائم وسهران فيها أجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الميت إلى أهله ، وتخطئة الذين يزعمون غير هذا الزعم ، يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره ، كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل ، وانشطرت عليها أحزاب الفلسفة ، ولم يفرغ الناس يوما من بحثها وتقليب وجوهها ، والتنقيب عن أسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقى ففض الخلاف ببيتيه هذين :

سر مع العمر حيث شئت تئوبن وافقد العمر لا تؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذى زعموه فى قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان أهل الميت إذا مات فى برلين أو لندن أو الهند لا يزالون يترجون يوم أوبته ، ويعدون أيام غربته ، وكان العلماء فى كل قطر وبلد يتساءلون : أفمن مات غريباً عن دياره ، أيئوب الى أهله يوما ناضر الصفحة ، متهلل الجبين ، ممتعاً بالعافية ، أو لا يئوب ؟ فكان فريق منهم يقول : «نعم» ، وفريق يقول : «بل لا» ، إلى أن جاء شوقى فأفتى فتواه الجازمة ، وقال «بل لا يئوب» فانحسم الإشكال وقطعت جهيزة قول كل خطيب .

قال ناقد أديب : إن الشاعر مسبوق إلى هذا الحل ، سبقه إليه قائل المثل العامى : « اعطنى عمرا وارمنى فى البحر » وإنه كان أسوأ منه تعبيراً وأقل ظرفاً ، إذ يخاطب القارىء بقوله : « افقد العمر » وذلك العامى يتلطف أن يجنبه الناس بهذا الخطاب

وتقول : إن توارد الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة أخرى فإن من يتجشم لأجل الانسانية أن يغوص على هذه المسائل العويصة ، ويسهر الليالى فى فض مغلقاتها وحل مشكلاتها ، لحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا يكلفوه أن يأتى بمثل هذه الهنات ! !

ولنعد إلى ما كنا فيه من نقل أبيات شوقى التى لم يرد فى فلسفة الشحاذين مثلها ، فن هذه الأبيات نبأ عجيب فحواه أن فى العالمين نعشاً واحدا تنقلهم أعواده من عهد عاد :

تستريح المطى يوما ، وهذى تنقل العالمين من عهد عاد

فإن لم يكن يعنى هذا ويزعم أن الأمم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد تنقل عليه موتاها فسبحان من يعلم مراده . وإلا فإن كان يعنى أن هذه الخشبة التى ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد — فأى شىء لا يمكن أن يقال فيه ذلك ؟ أية مطية تنقل العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال أى إنسان لا يقول اليوم أو بعد مائة جيل أنه ركب مركبة فرعون ونام على سرير قيصر ؟

(ه) ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا وطوت من ملاعب وجياد

الحقائق الخالدة شاعر عصرى ولا شك ! ألا تراه يدين بكروية الأرض ؟ ولكننا إنسانية نخشى أن لا يكون شوقى قد ذكر الكرة إلا ليذكر بعدها الصولجان والملاعب والجياد ، بل نحن لا نخشى ذلك ، نحن على يقين منه . فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟ إن الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة ، لأنها حقائق الإنسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها . وأنت إذا نقلت هذا البيت إلى أية لغة لم يكن معناه إلا هكذا : « هذه الغبراء أسقطت من أيدى الملوك قضباً كثيرة ، ودمرت ميادين لاعداد لها من ميادين السباق ، وأبادت خيلا لا تحصى » — فما أشبه الحكماء بالمغرورين إن كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة ، ويقول :

تطلع الشمس حيث تطلع صبحا وتنحى لمنجل حصاد
تلك حمراء فى السماء ، وهذا أعوج النصل من مراس الجلاد

اليوم لا تخشى بغتة الأجل فى كل حين ! ! فالشمس لا تضرج بدم قتلاها إلا

حيث تطلع صبحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء . أما إن طلعت فى الأرض فهذا شىء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصادا إلا فى أيام الأهلة أو المحاق، وفيما عدا هذه الأوقات لا قتل ولا حصاد ، فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربى فلا تصدقوه فإن موته باطل . .

(و) ألا أن شعراً يسف إلى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب إلا زغل الصناعة لاجزى الله صانعيها خيراً . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ، ولم يتوسلوا به إلى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به ، كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية ، وكأن الناس فقدوا قدرة الإحساس بها على ظواهرها . نظروا إلى الهلال فإذا هو أعوج معقوف ، فطلبوا له شبها ، وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسى ، لأنه لن يهرب يوما فنقتفى أثره ، ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه ، وإن كان لا بد من التشبيه فلنشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أو ذكرى ، فنى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر ، طلبوا ذلك الشبه فقال قوم : هو كالخلخال ، ثم رأوا أن لا بد للخلخال من ساق فقالوا : هو فى ساق زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا بها إلى آخر ما تتدهور إليه هذه الأوهام . وافتن قوم فقالوا : هو كالمنجل ، ثم التمسوا له شيئاً يحصده ، فقال ابن المعتز :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل ، وقد صيغ من فضة ، وهو يحصد النجوم ، والنجوم نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود ، فماذا وراء هذا كله ؟! هذر فى هذر . وجاء شوقى فقال إنه منجل يحصد الأعمار فأخطأ حتى التشبيه الحسى ، لأن الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب ، وأما سائر الأيام فلا يكون فيها القمر منجلا فى شكل ولا فى حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والغبار الذى على صفحتيها دوران الرحا على الأجساد

وذلك من قول أبى العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورحا المنية تطحن

obeikandl.com

مثل لفناء الأعمار بالطحن . ولا بأس بهذا التمثيل ، وافترض للطحن رحى ، وجعل المنية الطاحنة. فبلغ حداً لا يحتمل بعده الاستطراد ، فعز على شوقى إلا أن يكون لهذا الطحين غبار ، وأن يكون الطحين كله غبارا ، وأن يكون الغبار هو دوران الرحى ، عند هذا يركد العقل ويجم الكلام .

(ز) ولم أفهم البيتين الآتيين بعد قوله : « تلك حمراء فى السماء إلخ » ، زيف الصناعة وهما :

ليت شعرى تعمدا وأصرا أم أعانا جناية الميلاد ؟
كذب الأزهران ماالأمر إلا قدر رائح بما شاء غاد !!

يعنى الشمس والقمر ، فما التعمد والإصرار ؟ وما إعانة جناية الميلاد ؟ وما الفرق بينهما ؟؟ أيريد أن يطبق على الأزهرين المادة القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق إصرار ؟؟ وفيم كذبا ، وكيف يكون جريان الشمس والقمر فى حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما تنفيا للقدر الرائح الغادى ؟؟ وهل التعمد والإصرار وإعانة الميلاد إلا رواح القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ أسئلة لا جواب عليها ولا لوم فى ذلك على شاعر الإنس والجن فلعل هذه من أبياته التى صنعها لإخواننا الجن واختصهم بهما دوننا .

ويقول فى نعش فريد أو حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لها الزمام لجاءت وحدها بالشهيد دار الرشاد

أما دار الرشاد فهى مصر كما قالت القافية ، لا كما أراد شوقى ولا كما أراد التاريخ والأثر . وأما معنى البيت ، فيقول شوقى : إن نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه إلى مصر لسعى وحده إلى مصر !! فلله ما أقدر رائى الشموس على إحالة الجليل مضحكا والتقديس زراية : نعش يسعى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار يعتدل وينعطف ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جاذا لا يلوى على شىء قبل بلوغه ، والناس متنحون عن طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته ... أفمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والإجلال ؟ ؟ ألا ساء ما أصاب ذكرى الرجل من إجلال شوقى . أراد أن يقول كما قال البحترى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

فكبا كبوة حاطمة .

المعرى وشوق

(ع) ولقد طمح شوقى إلى معارضة المعرى فى قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا نذكر أننا اطلعنا فى شعر الغرب على خير منها فى موضوعها والمعرى رجل تيمم هذه الحياة محرابا ، واجتواها غابا ، وصدف عنها سرابا — لابس منها خفايا أسرارها ، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها وحواضر أطوارها . فإذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبيله وأين شوقى من هذا المقام ؟؟ إنه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره ، وأعمق ماهبط إلى نفسه من آلامها إعراضة أمير أو كبير ، وما يمثل هذا ينظم الشاعر فى فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق إلى وهم شوقى أننا نكبر قصيدة المعرى تعصباً للقديم وإيثاراً للعرب على العجم — نلقى اليه ها هنا درساً فى الشعر قد ينفعه .

حقيقة الشاعرية والتشبيه

(ط) فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء ، لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ، وإنما مزيته أن يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع ، وإنما همهم أن يتعاطفوا ويودع أحسهم وأطبعهم فى نفس إخوانه زبدة ما رآه وسمعه ، وخلاصة ما استطابه أو كرهه ، وإذا كان كذلك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار فما زدت على أن ذكرت أربعة أشياء حمراء أو خمسة بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان ، فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه . ولهذا لا لغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً ، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه ، لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليك من الشعاع

فتضاعف سطوعه ، والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا إن صح هذا التعبير . ويزيد الوجدان إحساسا بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذي لايخطىء فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره : فإن كان لايرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم و نفحات الزهر إلى عنصر العطر — فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما إخال غيره كلاما أشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فإن تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى التى اجترأت على معارضتها .

(ى) نظر المعرى إلى سر الموت فلم يره فى مظهره الضيق القريب ، حادثا الموت عند المعرى متكررا تختتم به حياة كل فرد. بل رآه على حقيقته الخالدة العميقة . وعند شوقى رآه كما بدا منذ القدم لبدائه الحكماء وأصحاب الأديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس ومانى : حرباً سر مدية قائمة بين قوتين خفيتين، ميدانهما كل نفس حية ، وكل ذرة فى طباق الأرضين وأجواز السماوات — هاتان القوتان هما الخير والشر ، أو هما النور والظلام ، أو هما الحق والباطل ، أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعوان لا تنى تقبل وتدبر ولاتتمهل ، والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها إلى ختام الزمان إن كان للزمان ختام .

نظر المعرى إلى العالم الأرضى فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نحبا مقضيا ما أحس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما فى كل كيان قائم ، متقادما فى كل ركن متقادم :

كل بيت للهدم ما تبتنى الور ... قاء و السيد الرفيع العماد

وعلم أن القوتين اللتين هذا أثر نضالهما فى الأرض فاعلتان هذا الفعل لا محالة فى أشرف كواكب السماء وأسماها وأضوأ عوالم النور وأذكاها .

« زحل أشرف الكواكب دارا ... من لقاء الردى على ميعاد

ولنار المريخ من حدثان الد ... هر مطف ، وإن علت فى اتقاد

والثريا رهينة بافتراق الشـــــمل حتى تعد فى الأفراد »

لا ، بل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين متلاحقين فى كل حال :

« واللبيب اللبيب من ليس يغتر بكون مصيره للفســـاد

وكانت العبرة التى استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق أفراح الإنسان وأحزانه . ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله:

« غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شـــاد

وشبيه صوت النعى إذا قيـــس بصوت البشير فى كل نادٍ »

وإذا ذكر متاعب الحياة فكأنما يذكرها ليصرفها عنه بنظرة القانط المستخف فيقول :

« تعب كلها الحيـاة فما أعـــــجب إلا من راغب فى ازدياد

إن حزنا فى ساعة الموت أضعا ف سرور فى ساعة الميـــلاد

أسف غير نافع ، واجتهاد لا يؤدى إلى غناء اجتهاد »

كذلك كان إحساس المعرى بسر الموت ، وهو أوسع إحساس قدر لبشرى أن يحسه من ذلك السر الرهيب . أما أنت فقد نظرت فماذا رأيت ؟ ؟ لعلك أدرى بما تنظر وترى ، ولكننا نقول لك ما لست تدريه . إنك لم تر شيئا يحتاج الناظر فى رؤيته إلى غير الحواس — إنك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوى المعرى بين وكر الورقاء ومعاقل العظماء ، وبين منازل الأرض ودارات السماء . أردت أن تعمم كما عمم ، ففاتك مغزى تعميمه ، وجئت بكلام لا لباب له ، ولا ترضى قشوره ، إذ ما علمنا بين الحضر والبدو من فرق فى التكوين يدعو إلى توهم الاختلاف بينهما فى حكم الموت . وإنما يقولون « هذا خبر سمعه الحاضر والبادى » لأن أحدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار أو انقطاع الأخبار ، ويقولون « يتسابق إليه الحاضر والبادى » لمثل هذا السبب . وأما قولك يموت من فى الحاضرة والبادية فكعدك الناس اسما اسما ، وقولك عن كل واحد إنه يموت ، وعلى أنه لو صح أن يقال هذا فأى فضل فيه لغير الحواس ؟ وأى دليل فيه على اللب الحكيم والطبع القويم ؟؟

وتقول فى القبر : إنه منار المعاد

---

(١) الكون هنا وفى البيت مصدر « كان » بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم (عن الأصل)

وزمام الركاب من كل فج ومحط الرحال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟؟ وتقول :

وعلى نائم وسهران منها قدر لا ينـــام بالمرصاد

وهذا كذاك بل أضعف . أما قولك :

لبد ساقه الردى وأظن النـــــسر من سهمه على ميعاد

فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .

سرقة وتزييف

(ك) وإذا تجاوزنا هذا الباب إلى غيره وعمدنا إلى مقارنة الأبيات المتشابهة فى القصيدتين ألفيناك تخطىء فى كل بيت تسرقه من المعرى ، أو تأتى بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب . المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد

وليس أجل ولا أصدق من هذا الشعر ، وإن تعبيره عن تعاقب الدفين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتزاحم الأضداد ، وقوله : إن اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام — لأبلغ ما ينطق به اللسان فى وصف تهكم الموت بالأحياء ، وعبث التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحـــاكى هذه المعجزة البيانية بقولك :

هل ترى كالتراب أحسن عدلا وقياما على حقوق العبـــاد

نزل الأغنياء فيه على الضعـــــفى ، وحل الملوك بالزهاد

صفحات نقية كقلوب الر سل مغسولة من الأحقاد

التراب ينصف العباد و يصون حقوقهم أحسن صيانة لأنه يبيدهم جميعاً ! ! فبحقك يا هذا ، كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذى لقيه أضعف العباد من أقوامهم وأظلمهم أشد من هذا الإنصاف والصيانة ؟؟ ويخيل إليك أنك أبدعت حين قلت : إن الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! فهل تعنى أن الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟؟ فإن كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم أنه خطأ ، وقلته لغير غرض — أما المعرى فقد أحاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق أو بلاغة الأسلوب حين قال :

وعزيز على خلط الليـــــالى رم أقدامـــكم برم الهوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لا لعب فيها .

وعندك أن طهارة القلب هى موته ، فإذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيا مغسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب أن لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟ ؟

يقول المعرى :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ رض إلا من هـذه الأجساد

وأنت تقول :

والغبار الذى على صفحتيها دوران الرحا على الأجساد

المعرى يسأل :

أبكت تلكم الحمـــامة أم غنـــــت على فرع غصنها الميـاد

وأنت تأبى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكى فتقول :

ضاق عن ثكلها البكى فتغنت رب ثكل سمعتـــه من شـاد

ثم يروقك وأنت تبارى المعرى مباراة المضحكين أن تزعم لمن حولك ولنفسك أنك نظمت فى فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة فى آية من آياته !!

على أنك قد تعذر بعض العذر فى قصورك من هذه الناحية لأنك مجبر فيه لامخير . أما الأمر الذى لانعلم لك منه عذرا فأن ترثى رجلا كفريد (١) بقصيدة

---

(١) من العار أننا لا نزال نجهل فضل فريد العظيم حتى الآن ، ونعده دون مصطفى كامل رحمهما الله — مع أن فريد أعظم منه خلقا وثقافة، وأقوى رجولة وإيمانا ، وأكبر تضحية ووطنية. خطبته المغريات الكبرى لكى تثنية عن هدفها فردها منكراً مترفعا ، بل خرج عن النعم التى تحت يده فضحى بثروته على ضخامتها فى سبيل استقلال وطنه ، ومات فقيراً مريضا مشرداً غريبا فى ألمانيا (١٥ نوفمبر ١٩١٩) كأوجع ما يموت الشهداء وأكرمه ، وطبقت عليه الرزايا الحاطمة ملحة فلم يهن إيمانه ولم يلن عزمه ، وألف عدة كتب تدل على ثقافة واسعة ، وكانها تبشر بحبة الأوطان وتستثير الهمم بالقدوة الطيبة ، وكان مثل النفس العالية فى جهاده وليا وخصما ، وكان شعاره « مصر للمصريين » يحلى به صدره حتى بعد أن ضاقت به مصر سنة ١٩١٢ فهجر إلى الآستانة مضطهدا من حورا ، فكان حكامها وسادتها يعجبون منه ويجهرون بلومه على تحديهم ، لأنه وهو التركى الأصل مثلهم — يجاهر فى إصرار وتحد بالاستقلال التام لمصر التى إضطهدته ونفته عن سلطـان الأتراك فى عاصمتهم التى آوته ، كل ذلك وهو فى حضيض الفاقة والخيبة والهزيمـة ، لايداور ولا يدارى أحوج ما يكون إلى العطف والمعونة ، مع أن أشهر زعماء «المصريين الأصلاء» بفرط الغيرة الوطنية لم يكونوا وهم ينعمون بأوسع الفرص =

لا يرد فيها اسمه ولا سيرته إلا عرضا ، وأن لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولو كان ذاك الضيق فى مضطرب القول ، أو لنقص فى بواعث الأسى على الرجل لما خفى تعليله ، ولكنك تعلم كما نعلم أن مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن و يطيل مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك فى قضاء حقه وتوفية قدره لا يكون إلا لعجز أو كنود ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلإحنة لا تزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وأنت بأسبابها أعلم .

= وأرغد العيش — يسرفون فى مطالبهم من تركيا إلى هذا الحد ، وأقصى ما كانوا يجاهدون به فى أعنف نوبات الهياج الوطنى هو « الاستقلال الداخلى تحت السيادة العثمانية » ومنهم مصطفى كامل كما سجل قانون « الحزب الوطنى » حين أسسه .

قلنا منذ أكثر من عامين تعقيبا على مقال نشره « المصور » تحية لفريد « إذا كان مقياس البطولة هو التضحية فإن محمد فريد مثل فذ بين أبطال العالم قدمائهم وحدثائهم على السواء ، وإن كان نصيبه من الزعامة دون نصيبه من البطولة ، فقد ندر بين الأبطال من ضحى بمثل ماضحى به . . . ولقد ظلم فى حياته ، ولا يزال الظلم يلاحقه بعد مماته حتى من أتباعه ، وإذ لايذكره المصريون كما يذكرون من دونه بطولة وجهادا . . . رحم الله فريدا ، وبصر المصريين بتضحياته وجعلهم أهلا للتأسى به ، وإنه لذروة فى البطولة يعز التسامى إليها إلا على أولى العزم . . . »

والأستاذ العقاد يجمل رأيه هنا فى ذلك ، ويلمح إلى « إحنة لاتزال تغلى فى نفس شوقى على فريد بعد موته وهو بأسبابها أعلم » ، ونقرر ذلك حين نعلم أن شوقى كان من « البيئة التركية الحاكمة المنتصرة » كما قرر العقاد فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى — ص١٨٣ » وهى بيئة لا يمس معظم رجالها هموم الشعب وآماله وأوجاعه ، وإن كانوا يفهمونها فهم الغريب عنها ، وكانت مصلحتهم أن تظل مصر تابعة لتركيا ، حتى يدوم لهم سلطانهم عليها والاستئثار بنعمها ، وكان فى خلق شوقى ضعف إلى جانب ذلك ، أو كان « إمعه » كما نصح بيته .

إذا الفتنة اضطربت فى البلاد ورمت النجاة فكن إمعة

فكان ضد الشعب ما أحس قوة السلطة الحاكمة ، فكان ينحى على أبطاله بالبذاء ، وينكر على الشعب كل حق ، فإذا تغير ثقل الميزان فرجحت كفة الشعب تغنى بحقوقه وتملق زعماءه أسف أنواع التملق كما فعل مع سعد زغلول بعد الثورة الوطنية سنة ١٩١٩ وفوزه فى إنتخابات سنة ٢٤ وقد ظهر فريد ومات قبلها والشعب مغلوب على أمره ، وهذا من أسباب إحنة شوقى على فريد ومنها حسده إياه وحقده عليه وغيرته منه فى كرم أصله ورجولته وثرائه العريض ونفسه العالية التى تأبت أعظم المغريات ، على حين كان شوقى يبطح على وجهه صاغراً ليتسامى إلى سفاسفها وكل ذنب يرجى غفرانه ، وكل جرح فى النفس يرجى برؤه إلا مرض النفوس الصغيرة الطامحة حين يهيضها الحسد للعظماء ، وأعصاه إذا كانت العظمة نفسية لا أمل فى مساماتها ، وهنا ينفد الصبر ويستحيل العزاء ، ولا يجدى طب ولا دواء .

(أنظر المقدمة ، وص من هذا الكتاب)

٤ — رثاء عثمان غالب

ذوق فاسد

(١) من فساد الذوق أن يقصد المرء المدح فيقذع فى الهجاء ، أو ينوى الذم فيأتى بما ليس يفهم منه غير الثناء . وأشد من ذلك إيغالا فى سقم الذوق ، وتغلغلا فى رداءة الطبع — شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو فى موقف التأبين والرثاء والعبرة بالفناء .

ولست أدرى أى ماجن من نظامينا قال هذا البيت فى رثاء إحدى الفيان :

رحمة العود والكمنجا عليها وصلاة المزمار والقانون

ولكن لا ريب أن قائله — مهما سمح منه الهذر فى مثل هذا الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الغناء وأقدار ذويه — أسلم ذوقا فى بيته هذا من شوقى فى رثائه لعثمان غالب ، لأنه تعمد الهزل فقاله ، وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء .

ضجت لمصرع غالب فى الأرض (مملكة النبات)
أمست (بتيجان) عليـــــه من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغيـــــبته ، وأقعدت الجهات ! !
فى مأتم تلق الطبيـــــعة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الأرض) من جزع موائد (١) كاسفات
و (الزهر) فى (أكمامه) يبكى بدمع الغاديات
حبست (أفاحى) الربا والعهد فيها موميضات !
و (شقائق النعمان) آ بت بالخدود مخمشات

بل مما لا مراء فيه أن صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر بوعده لنفسه ، واغتبط بما دب عليه من المعانى الدقيقة ، والنكات الأنيقة . . . لأنه استطاع أن يذكر الزهر بمناسبة ولو فى غير موضعها ، ولعمرى كيف يكون شاعراً من لا يذكر الزهر أو الثمر كما يذكر العابد الله ، والعاشق ليلاه . يذكرهما فى غضبه ورضاه ،

---

(١) موائد جمع مائدة أى مضطربة .

وفى لهوه وبلواه ، وفى فرحه وبكاه ، وفى غيظه وهواه ، وفى يقظته وكراه — ويذكرهما حين يذكر الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الآهلة ، وحين يروى عن النعمة السابغة ، أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة ؟ وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلها بفتن الجمال ، من إذا وصف الجثة الحائلة لم يقل إنها صفراء كالأقحوانة ، أو المتميز من الحنق لم يحسب أنه يتفلق كما تتفلق الرمانة ، أو المتدلى من المشنقة لم يره أنه يهتز اهتزاز البانة ، أو قطع الرقاب — والعياذ بالله — لم يشبهه بقطف الريحانة ! وشوقى لم يوف بهذا الغرض فحسب ، بل أرانا أن الأزهار لا تجرى على سنن المجاملة فى النواح ، فعل النساء ، وإنما تحزن على من هى غرس يده ، وجنى معرفته ، ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة أن تريق دمعة أسفا لفرقته ، وإنما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والذوق المليح ؛ فكان يجعل اسوداد الفحم حداداً عليه ، وصلابة الحديد جموداً لهول المصيبة فيه ، وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقانا ، ولين القصدير ذوبانا ، إلى آخر ما هناك من ألوان العذاب التى تلم بالمعادن الصلاب . ولو كانت النكبة فى عالم « جيولوجى » لما قال شيئاً من ذلك ؛ بل كان يقول — مثلا — إن الطبقة الرملية فى ناحية كذا تحثو التراب على رأسها فزعا ورعبا ، وإن الطبقة الجيرية فى موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وإن هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بها الكمد ؛ وناهيك ما كان يقول لو نفذ القضاء فى شاعر جليل فإنه — أبقاه الله — لن يقنع بأقل من إلحاق الزحاف والإقواء والخبن والسناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت ، أو تقال ، من يوم خلق الله الشعر إلى يوم يبعثه من القبر الذى ألحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون . وأى تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر الندابة فى صهيل الخيل ، ومواء القطط ، ونهيق الحمير ، وعواء الكلاب ، ونقيق الضفادع ، لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟ ؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه ، فإننا إن احتملنا حداد الألوان والأشكال فلن نطيق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وأسفاه !! لا بد من التضحية ، لا بد من الفقدان والخسارة فى هذه الدنيا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الإنسان : إن الأشجار قامت على «ساق»

وأقعدت الجهات الست التى ما برحت قاعدة فى مكانها منذ الأزل ، وليس من الهين أن يحشر الطبيعة « لا أكثر » فى مأتم تكون فيه إحدى النائحات « فقط » ولا من اللعب أن يصل فى كل ساعة إلى إبكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار — ولاسيما النفيسة منها — كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل . ولكى يقول الرجل الفانى منا هذا القول ، ويهبط إلى قرار هذه المعانى العميقة — لا غنى له عن التضحية بالذوق السليم ، والوصف الصادق ، والتخيل الصحيح ، والشعر الجدى ، والشعور القوى ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنه ، فما تأوه ولا صرخ ، ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولامبالاة ... تقول : ولكنه مع ذلك كان سخياً غنيا ضعيف الملكة مشتوه السليقة . . . ونقول : هذا صحيح ، ولكنه قال ما أراد أن يقول ، وتفنن وروى .

(ب) أجل !! إنه لم يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذى يرثيه أولئك شعور الأشياء السذج البلهاء ، الذين يحسبون أن الإخصائيين إذا ماتوا فجعوا دون الناس أحدا غير المواد التى تفرغوا لدرسها ، وتوفروا على البحث فيها ، والذين إذا أودى أحد أولئك الإخصائيين أسفوا ، ووصفوا أسفهم هم عليه « مباشرة » ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة ، وعلى غارب السحاب تارة أخرى ، أو يكلوها إلى الطبيعة كلها بأرضها وسمائها وأمواتها وأحيائها ، ويجعلوا النفس الإنسانية ؛ أو نفس المصاب بالبلية — آخر من يحس فى هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد فى الإبانة عن براعة شوقى وافتنانه ، والإشادة بخلابته وبيانه ، لو لا أن آثرنا أن لا يفوتنا سؤاله عن أنواع من النبات لم يسمها فى تلك المناحة التى أقامها — ماذا كان من شأن القطن بأصنافه ؟ وماذا صنع القمح والشعير ؟ بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء فى ذلك المأتم العميم الذى كانت الطبيعة فيه إحدى النائحات فقط ؟ إنه سكت عن هذه الأنواع وغيرها ، فهل ذاك لأنها لم تكن من أتباع النباتى الكبير ؟ أم لأن

من خواص تلك الأنواع التى يعلمها الشعراء ويجهلها النباتيون أنها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟ أم لعلها لا تنتمى إلى عالم النبات . وإن ردها الناس إليه ، كالمرجان يحسبه قوم نباتا ، ويحسبه آخرون جمادا ، وهو من عالم الحيوان ؟ أم هو الصدق فى الخبر والأمانة فى التبليغ أوحيا إليه ما قال . فذكر فريقا وسكت عن فريق رأى الرجل الأفاحى باهتة ذابلة على غير عهدها ، وأبصر شقائق النعمان تخمش خدودها فأبرأ ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئاً ، فربأ بشعره عن شهادة الزور والتخرص ، وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟ تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا أهميتها وخطورتها ، ولولا أننا تعلمنا منذ الآن أن نرقب أعين كل جامد ونابت وحى ، حاشا الإنسان ، تعرفاً لجلائل الأنباء ، واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ، ويطير بها النجابون ، ولو لا أننا عرفنا ماذا ينبغى أن تحذر الأمة من موت الإخصائيين من رجالاتها ، وأنها مسئولة أن تضن بأرواحهم مخافة أن تمتقع نرجسة أو تسود فحمة . .

(ح) انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى إلى رثاء العالم الطبيب ، فقال مفصلا مقسما .

أما مصاب الطب فيـــــه فسل به مَلأ الأَسَاةِ
أودى الحمـــامُ بشيخهم ومآبهم فى المعضـلات
على نمط شعره
ملق الدروس المسفرا ت عن الغروس المثمرات

والقارئ يرى أنه لم ينح نحوه الأول . وما كان ذلك — بلا ريب — استهجانا له ، أو توبة عنه ، وإنما خانته القريحة ، وخذله الاختراع . وإلا فماذا كان يمنعه من أن يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة — مثل هذه الأبيات :

طربت لمصرع غالب فى الأرض رسـل الحميات
قد مات « غالب » جندها فتمردت بعد « الممات »
أمست جرائم الملار يا من سرور « ظاهرات »
وتفرق التيـفوس والتـــــيفود فى كل الجهات

وتألب المكروب والـــبكتيريا بعـــد الشتات
وبكت قوارير الصيـا دل بالدموع السائلات

فهذه أبيات ليس لنـا من فضل فيها سوى فضل التقليد للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فليقل لنا فيم أخطأنا المحاكاة ، وخالفنا الاحتذاء ، وقد كدنا عن القياس ؟ ولكأننا بصاحب « الامتياز » الأصلى يعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة ، فإنه ليس أغص للنفس من فرصة يلوح تأتيها بعد معالجتها واليأس منها . .

كذلك يؤبنون يا من خلقتهم ، فكيف تراهم يتهكون ؟ ؟ وأما والله لو توخى هذا الذى شمر لتأبين « عثمان غالب » أن يمازح الرجل بكلام يعرض له فيه بعمله وصناعته ، مسترسلا فى الدعابة ، مستهترا بالمجون ، متبسطا فى الفكاهة — لما استطاع أن يضرب على أوقع من هذه النغمة . فليت شعرى بأى ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟. أيذوق الشاعر المفطور الذى يميز بين شبهات السرائر ، وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟ يقولون : إن أذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ، ولو قلنا : إن خطرة الشاعر ينبغى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الإحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا ، فما ظنك بأمير الشعراء لا يميز بين إحساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان — أحدهما لا تحسه النفس إلا فى أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح . والثانى إنما يخامرها فى أقدس مواقف الموت وأجلها : موقف تمجيد العظيم الراحل ، والعظة بسيرته . . ! ألا هكذا فليمت الإحساس النبيل الصادق ، وإلا فلا موت ، بل نحن فى دار الخلود . .

(ى) مه ! مه ! إن من السخف لما تعافه الجبلة وتتقزز منه النفس تقززها جناية الترف على من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمنونا بلادة الأغبياء الطبائع والأذواق بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقذره ، لأنه كالورم الذى يخيل إلى الصغير من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا ، فيهوى يقبله ويرمقه . وحسب الطبع تقززاً أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة .

ومن نظر إلى عشرة ممسوخين فى بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من من ذوى العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لا يروقهم إلا لما فيه من غثاثة وعوار — خلائق كل ما نستطيع أن نعلل هذا الاعوجاج فى طبائعها وأذواقها أنها تلفت لفرط ما أخلدت إلى الكسل والضعة ، وتلوثت لحقارة المشاغل التى بقى لها أن تعنى بها وتكثرت لها ، ونغلت لشدة ماتوالى عليها من عنت الدهر ، وذل الحوادث ، وإلحاح الإحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء اللازب شر ماتمنى به نفس بشرية . أعقبها العجز عن إحتمال الجد ، والتمادى فى الهزل ، واللجاج فى السلوى الكاذبة ، حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها ، بل كادت تكون خلقا ثابتاً فيها . وساء فهمهم للذوق السليم ، فأصبح جهد الذوق فى زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الطرف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الذوق الإنسانى ، وحسن استعداده ، وإنما هما نقيض هذا الذوق ، وأقرب إلى الوحشية منهما إلى الإنسانية . ألا ترى إلى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم ، وتنهش أحشاءهم ، وتقضم عظامهم ، وتلغ فى دمائهم ، وهم يسمعون أنينهم ، ويتلذذون بأوجاعهم ، كأنهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب . فإذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان فى ذلك العهد !! كانوا فى عهدهم الذى بلغوا فيه من الترف ونعومة الأخلاق ما لم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

الإحالة عند شاعر المومياء

(هـ) وبعد ، فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الذوق فانتقل إلى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات : ألا وهو الإحالة وعقم الفكر ، بيد أنه وفق هذه المرة إلى إثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية الله أحيا المومياء

يأمر الشاعر المرئى أن يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية . . . فيحسب السامع أن الآية التى سيراها الدفين بعد بعثه أعجب وأخرق لنواميس الكون من رد الميت إلى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم أن الأعجوبة التى يبعث الدفين

من قبره ليعجب منها هى النظر إلى ميت يبعث .. فهل سمعتم فى العى والإحالة ماهو أحمق من هذا اللغط الفارغ الخاوى ؟ ؟ أليس هذا كإيقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ ، وكحمل المقعد إلى أوربا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر إلى مقعد يعرض فى المسارح للمتعجبين ؟ وعلى أن بعث العلامة المدرج فى اكفانه أغرب وأشد استحالة من بعث المومياات التى يعنيها شوقى ، لأن موت الأمم مجازى لا تستغرب الرجعة منه . وموت الأفراد حقيق لا رجعة منه فى هذه الدنيا . وعدا هذا فإن كان القصد من بعث الأستاذ غالب أن يرى «المومياات» تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر ، فلا حاجة إلى قلب نظام الكون وإزعاجه فى ضريحه ، لا لشىء إلا أن يرى المعجزة التى قد رآها . وبعد فليذكر شوقى أن الذين يدعوهم بالمومياات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ، ونفذت فيهم دسائسه ، وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فإن كان هو شاعرا لأحد فهو شاعر المومياات ، وإن كان لشهرته حد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك المومياات :

خرجت بنين من الثرى وتحركت منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر « المومياات » بإقامة الأموات ! فهو ينادى عثمان « قم ترى آية » ويصيح بسليمان « قم بساط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الإمام شامتاً « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم إن اسطعت فى سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره ... أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من فى التراب ! !

(و) ولم ينس شوقى براعة المقطع فختم القصيدة بأليق بيتين يتممان ما فيها من خطل الإدراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

لايفرق بين الفكر والوجدان

الفكر جاء رسوله فأتى بإحدى المعجزات
عيسى الشعور إذا مشى رد الشعوب إلى الحياة

ففى كل مختصر من مجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كل منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة

بهذه الحقيقة ، فتسمع منهم من يقول أحياناً « ليست هذه المسألة مسألة عقل ، هذه مسألة إحساس » أو ما فى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يفطن إلى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئاً واحداً ، ثم يعكس الآية فيقول : إن الشعور يرد الحياة ، وكانا يعلم أن الحياة هى التى تنشىء الشعور ، ولا بدع فإن من لا يفكر إلا سهوا ، ولا يشعر إلا لهوا ، ولا يمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة إلا عفوا — لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والإحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

---

٥ — استقبال الوفد

(١) قصيدة أوجزما توصف به أنها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون ، وكان مقلد المقلدين فيها مقلدا للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارئ شاعراً من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعاً أول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافها . ويتحرى عجائبها ، ويستكنه أخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، إلى أن سيق إليه صنيعة من صنائع شوقى ، فأسمعه أن هاهنا شاعراً يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب إلا لقبا مزدوجا ، فهو إما شاعر الشرق والغرب ، أو شاعر الأرض والسماء ، أو شاعر الإنس والجن ، أو شاعر الأقدمين والمحدثين ، أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين — إلى أشباه هذه الألقاب . هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائنا من كان فى العالمين . وقد تعلم أيها القارئ أن أذكياء الغربيين وخاصتهم لا يألفون الإطناب والتهويل ، وأنهم يقدرون إعجابهم ويزنون كلماتهم ، فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الأقدمين والمحدثين عندهم ، بل الإنس والجن ، والأرض والسماء ، وإن كان لأحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أو جيتى بشاعر أوربا ، وإن كان لكلهم من شيوع صيته

وقدم أيامه ، وكثرة المعجبين به ، وتداول طبعات كتبه — مسوغ لهذا اللقب . فلا بد أن يلمح الشاعر الغربى فى تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا ، بيد أنه يحب أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية ، وأن يعرف المعانى والمثل العليا والخيالات التى إذا نطق بها الشاعر وجد فى مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية ، والتقدم الاجتماعى ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هى قصيدته فى استقبال أعضاء الوفد .

(ب) يبدأ صاحبنا معجباً فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق ، وانج من جماعة الظباء السائرة فى الرمل ومن جماعة الظباء ..» وهو ترجمة بميزان الترجمة قول شوقى :

أئن عنان القلب واسلم به من ربرب الرمل ومن سربه

فيصيح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير ، كما يقال : «النار ا النارا» و«الحصان ا الحصان» ، إلا أنه يتوهم أن فصائل الظباء والأيائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم فى هذا الجانب من الأرض ، فيتقونها ويهربون منها لضراوتها وعرامها ، ويود لو يرى هذه الأوابد الإفريقية ، فما هو إلا أن يسأل صاحبه فى ذلك ، فإذا الجواب حاضر يلقى إليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول « كلا ، كلا ، ليس فى بلادنا ظباء مخيفة ولا أليفة — ما إلى هذا قصد شاعرنا ، وإنما هو يعنى النساء »

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟ ؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فإننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية »

نقول : ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربى هذا التشبيه على أنه منقول عن العرب ، وربما قال بشئ من التهكم : «حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا أدرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ؟ ولم تكون شوارع مصر تلولا

إن كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : «إذن فصاحبكم عاشق يتغنى !»

وما أشد ما تكون دهشته إذ يقول له محدثه — وقد زم شفتيه ، ومد عنقه ، كمن لا يرى داعيا لذلك الافتراض — «ولماذا ؟ ؟ إن الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة ، سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين»

فيفاجأ الرجل ، ويجد أنه قد أحال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب . فهل يطلب منه أيضاً أن يحيل التقليد فى الغزل على اختلاف الخلقة ، وتفاوت التركيب ؟ ؟ وإن صح ما ترجم له ولم يداخله شك فى نهضة الأمة ليكونن إذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز فى العقول : فإما أن الشرقيين ركبت قلوبهم ، وأشرجت شهواتهم بحيث إذا أحب السلف العربى أتى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون .. وهو مستحيل . وإما أن هؤلاء الشرقيين يعيشون فى إبان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ، ويموت الآخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرئ من قلبين فى جوف واحد .

على أنه يجنح إلى حسن الظن ، ويخيل إليه أنه أخذ يفهم بعض الفهم ، ويقول لمترجمه : «إخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا» فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : «إن الغربيين كما يتسلون أحيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الأقدمين ، ويتزينون بزى الفرس والهنود — كذلك يخطر للشعراء عندهم أن يتسلوا باحتذاء أسلوب الشعراء فى الأمم النازحة والأجيال الغابرة ، رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه أنه رياضة مقبولة» .

فيفغر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات يحسبها أحاجى وألغازا ، ويظن أنه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد

والهزل ، فيخبر الشاعر الغريب بالغرض من نظم القصيدة وأن قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا . وإنما نظمها فى مستقبل أمة ناهضة . . . وتحية لزعمائها . . إلى هنا ينتهى العجب باليقين — فإن كان الرجل قد ارتضى التقليد فى التشبيه والغزل ، واغتفر نقض المدينة العامرة ببابا ، وقلب الشوارع الممهدة هضابا — فمن وراء عقـــله أن يرتضى استهلال الكلام فى نهضات الأمم بالغزل صادقا كان أو مستعارا ، وأن يفهم الابتداء بوصف محاسن النساء وإطراء العيون الكحلاء ، تمهيدا للثناء على مآثر العظماء ، ومناقب الزعماء ، وأن يئن ويتوجع ، فى حيث يفخر ويترفع ، وأن يوائم بين موقف الوجد والصبابة وموقف النصح والإهابة ؛ فذلك مالا يقبله تفكيره ولا يذهب إليه تخمينه ، وإن أعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا ، وقيمة آدابنا ، ومدارج نفوسنا — فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج أن يظلم أو يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا معذورا .

(ح) ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربى ، لأن فهم هذه البسائط وقف على الغربيين ، ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم بساطتها أن يفهموا على أى وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت عقولهم من سلطان تكرارها ، وجريانها مجرى القواعد المصطلح عليها . وإلا فأى إنسان تجرد من الانخداع بالتكرار ، وخلع ربقة التقليد — لايشعر لأول وهلة بالخلط الشائن فى هذا الضرب من الشعر ؟ ما الشعر إلا كلام ، فإن كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه أجمل وأبلغ وأحسن وضعاً للمعانى فى مناسباتها . فهل يتكلم الرجل فى السوق والبيت ، فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام ، وتقدير الحوادث الجسام ، حتى إذا تهيأ للشعر لم يخجل أن يخلط فى قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام فى نسق واحد ؟ ؟ فلو أنه كان صادقا فى عشقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح إذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان ! !

جناية الإلف

(ز) لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم إلا على نية الرحيل ، ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نؤى تهيج فى البدء بالغزل ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكى هواه ، فجيراه كلما راح أوغدا حبيبة يحن إلى لقائها ، أو صاحبة يترنم بموقف وداعها ، فإذا راح ينظم الشعر فى الأغراض التى من أجلها يتابع النوى ، ويحتمل المشقة ، ثم تقدم بين يدى ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

عذر الأقدمين

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء إلى ملوك الحيرة وغسان وفارس ، وينتجعون الأمراء والأجواد فى أقاصى بقاع الجزيرة يحملون إليهم المدائح : يبدءونها أحيانا بوصف ما تجشموه فى سبيل الممدوح من فراق الأحبة ، وألم الشوق ، وطول الشقة ، وأحياناً كانوا يصفون الناقة التى تقلهم ، وخفة سيرها ، وصبرها على الظمأ والطوى ، ومواصلتها الليل بالنهار سعيا إلى الممدوح . كناية عن الشوق إلى لقائه . وكان الغرض فى الحالتين واحدا : وهو تعظيم شأنه . وتكبير الأمل فى مثوبته . فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى فى قصائد نظمت فى المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة — لا يعد من باب اللغو والتقليد .

(ح) ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج إلى النموذج والأستاذ ، فأقاموا المتقدمين أساتذة . واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها . وكان شعراء البادية لا يزالون يفدون على الأمصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتدين ، فكان يختلط المطبوع بالمصنوع فى هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الأدباء إلى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول (١) وأفرد كثيرا من الغزل فى قصائد قائمة بذاتها ، وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ، ويتجنب ذلك فى العظائم ، كما صنع أبو تمام فى

فترة انتقال بين الطبع والصنعة

---

(١) فى كتاب « أبو نواس » للاستاذ العقاد فصل عنوانه « الخمر » وصف فيه نعيه على الأقدمين بكاء الطلول ولهجه بالخمر فى كثير من فوائح قصائده ، وعلل ذلك « بطبيعة النرجسية » ص ١٤٦ (أنظره فى هذه المختارات)

بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية (١) . وفى رائيته التى أولها :

« الحق أبلج ، والسيوف عوار فحذار من أسد العرين ، حذار »

وكما صنع المتنبي(٢) حين مدح سيف الدولة. وذكر نهوضه إلى الروم، فقال مفتتحا :

« ذى المعالى ، فليعلون من تعالى هكذا ، هكذا ، وإلا فلا ، لا
حال أعدائنا عظيم ، وسيف الد ولة ابن السيوف أعظم حالا »

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

« الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول ، وهى المحل الثانى »

وكما صنع الشريف وأضرابه فى كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم .

ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الأمير فى المدينة ، وإنه لعلى خطوات من داره، فكأنما قدم عليه من تخوم الصين، لكثرة ما يذكر من الفلوات التى اجتازها ، والمطايا التى أنضاها، وحقوق الصبابة التى قضاها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله فى مطلع كل قصيدة حتى فى الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء المقلدون الجامدون .

---

(١) مدحه بها حين عاد إلى بغداد منتصرا ، وله فيه كثير غيرها وكان المنجمون قد طلبوا من المعتصم تأخير الغزو شهورا ، وحذروه من الهزيمة إذا عجل به يومئذ ، لأن النجوم — فيما زعموا — تنبىء عن ذلك ، ولكنه عصاهم ، فغزا الروم ، واكتسح جحافلهم ، وانتزع منهم « أنقرة » ثم « عمورية » أمنع معاقلهم فى آسيا الصغرى ، وإلى ذلك يشير أبو تمام فى مطلع قصيدته .

« السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح ، لاسود الصحائف ، فى متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة بين الخميسين ، لا فى السبعة الشهب
أين الرواية ؟ بل أين النجوم ، وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟ »

وأبياتها نيف وسبعون ، انظر ديوانه و « الفخرى » لابن طباطبا ص ١٨٩ ، و « تاريخ بغداد » للخطيب ص ٢٤٨

(٢) بل إن المتنبي « وعى » ظاهرة بدء القصائد بالغزل وأنكرها معللا ذلك ، فقال :

« إذا قيل شعر فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعرا متيم؟ »

والآن وقد بادت الطلول والقصور، ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه، وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال . . . يجيء شوقى فيتماجن ويتصابى فى مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة، ويقول فيها :

قد صارت الحال إلى جدها وانتبه الغـــافل من لعبه

ويجيء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين : إنه مجدد وإنه عصرى بل إنه شاعر العصر ! »

(و) وهل تعلم ما الغزل الذى استحل لأجله إتيان هذه المجانة والعبث ؟ ؟ فقد يكون له عذر الإجادة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداع، وإن حق عليه اللوم لوضعه فى غير موضعه — ولكنه هو الغزل الرث الذى ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعاريرِ بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صعاليك الوزانين لم يغسل رجليه فى وعاء هذه المعانى التى نضح بها شعر أمير الشعراء ؟ ؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعى العروض لم يقل فى وصفه : « قد يثنى كالبانة » . « أرداف مرتجفة كالكثبان أى كأكوام الرمل » ، « خد كالورد » ، « حسان كالأقمار أو كالنجوم » ، « مشية كمشية القطا » ، « عينان لهما سحر هاروت وماروت » ، « ظبية الرمل » إلى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هى روح العصر فيما يحدسون ! !

كناسة شعرية منبوذة

(ز) ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته إلى موضوعه : فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التى نشرتها الصحف يومئذ لولا أنها متناقضة متدابرة، وأنها خلو من الأسباب والحجج التى بنى عليها الكاتبون رأيهم. وأما الكلام الشعرى فيه ففى بيت القصيد أو بيتيه وهما :

عبث صبيانى

« قطارهم كالقطر هز الثرى وزاده خصباً على خصبه
لولا استلام الخلق أرسانه شب فنال الشمس من عجبه »

وإنه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح . ولو كان للشاعر فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان أشعر الشعراء ولكن « مكره أخوك لا بطل »

ولا أسهب فى التعليق على البيتين، ولكنى أروى مشاهدة يتبين منها القارىء مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس، وأن فى الأطفال اللاعبين خيالا أفطن، وتمييزا أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة.

بين أشرطة الصور المتحركة ولا سيما الأمريكية منها مناظر خاصة لإطراب الصغار وجلب المسرة إلى قلوبهم . ومن أشدها غرابة المطاردات الجامحة التى تجرى فيها خوارق العادات ، فتتحرك الدور والجواسق ، وتتطاير الكراسى والأوانى ، وهى كثيرة لا أظن زائراً من زوار الصور المتحركة لم ير واحداً منها . حضرت منظراً من هذه المناظر فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ، ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر ، والهجوم والمراوغة ، إلى أن وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكا . وما إخالهم كانوا مصدقين ما يرونه ، وإنما ضحكوا الآن المنظر مضحك على كل حال . قلبت شاعرنا الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الأطفال من سيارة تطير ، فيعلم أن طيران القطار بقاطرته ومركباته فى الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل أن يتبع الصور الذهنية خطوة ، فيرى القطار شاباً فوق الرءوس فى طريقه إلى الشمس ، ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرسانه يمنعونه ويكبحونه — لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالإغراب ، والأمر بعد لا يتطلب خيال شاعر ، فإنه من مدركات العامة السذج ، ولولا أنهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعت بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية . « الحمد لله الذى لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ »

أما أن القطار كالمطر يزيد الثرى خصباً على خصبه فتشبيه لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأى قرينة من القرائن أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ، ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس فى الحروف وهكذا تتعلق أشعار المقلدين بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعانى . وشوقى كما قلنا فى أول المقال مقلد المقلدين

٦ — النشيد

أحكام اللجان

(١) ربما كنا فى غنى عن نقد هذا النشيد ، إذ كنا لم نلق أحدا يتقبله ويحله المنزلة التى أحلته فيها لجنة الأغانى والألحان . فإن ألممنا به إلماما فى طريقنا فقد يكون لذلك فائدة ، وهى توقيف بعض القراء على قيمة أحكام اللجان ، وأنها فى أكثر الأحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن

حديثو عهد بلجان الفنون والأدب فى مصر . فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما فى أوربا فربما بلغ من تهاون الأدباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض «لم تجزها جامعة كذا» كما صنعوا برسالة شوبنهور التى كتبها فى الأخلاق وقدمها إلى جامعة كوبنهاجن ، ففضلت عليها غيرها ، فكانت سقطة الأبد .

شروط المحكمين

(ب) تصدت لجنة الأغانى للحكم فى أناشيد الشعراء ، وأولت نفسها هذه الكفاءة ، وإنها لكفاءة تتطلب الإحاطه بأشياء جمة ، قل بين أعضاء اللجنة من يعد ثقة فى واحد منها . فمن شروط الحكم فى الأناشيد القومية أن يكون عارفاً بالشعر ، خبيراً بتوقيع الألحان على المعانى ، مطلعا على أناشيد الأمم ، بصيراً بأخلاق الجماعات وأطوارها النفسية ، هذا إلى استقلال الرأى والعدل والجهل بأسماء من يحتكمون إليه . فهل بين أعضاء اللجنة كثير ممن تتوفر فيهم الشروط ؟ ؟ إننا نعرف من بين أعضائها أناساً نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم فى علومهم ، ونراهم أهلا للحكم فى أعضل المشكلات التى تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق فى شىء لا يفيد التفوق فى كل شىء . وإذا علمت أن الرجل من الإخصائيين يقضى العمر فى فنه باحثا منقبا ، ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطىء ، ويبرم اليوم ما نقض أمس . فأحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما لم يتفرغ له ولم يدع الحذق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل إلى إنكارها ، وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

تواطؤ مريب

(ح) فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا فى الجلسة وقبلها نشيد شوقى المقدم إليهم غفلا من الإمضاء ، ولا ندرى لم تكلفوا إغفال اسمه ، ورأوا ذلك شرطاً ضروريا لنزاهة الحكم ، ثم سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر فى الجلسة باسم صاحب النشيد ، بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء إلى رفضه ؟ بل لا ندرى لماذا أرجأت اللجنة اجتماعها موعداً بعد موعد ، وتمهلت حتى يتم شوقى نشيده ، وبين يديها نيف وخمسون نشيداً ؟ أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشودة واحدة ؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين فى إحدى الفرق يلحنونه ويروضون أنفسهم على إلقائه ، واللجنة تطبع الأوراق وترسل الدعوات ، وتستقدم أعضاءها للنظر فى أناشيد مجهولة ، وأسرار مكتومة ؟ فهل سعى النشيد وحده إلى دار التمثيل ؟

ومما نذكره أن اللجنة — لفرط برها بشوقى، وحرصها على اختيار نشيده — قبلته على ما فيه من مآخذ وعيوب نبه اليها بعض الفضلاء ، وردته إلى صاحبه ليجتهد فى إصلاحه قبل إذاعته من قبلها : وذلك أن عضواً عاب قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

أليس لكم بوادى النيل عدن الخ الخ

وقال إن البيت الثانى منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن ، والنيل بالكوثر ؟؟ فوافقوه على انتقاده . وأنكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومعناهما .

جعلنا مصر ملة ذى الجلال وألفنا الصليب على الهلال

وأقبلنا كصف من عوال يشد السمهرى السمهريا

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل إلىَّ أن أحدهم قال : « إننا نجعل مصر وطنا يشترك فى حبه أبناؤها ، وأما ملة ذى الجلال فهى الملة التى يدين بها كل إنسان بينه وبين ربه « ذى الجلال » وهو انتقاد سديد ، فإننا إن سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الإسلام والمسيحية واليهودية ؟؟

وإنما يقال : « اتحدوا فى الوطن واتركوا الدين للديان » . ولا يقال: « اجعلوا الوطن ملة الديان » . ولم يستحسنوا قوله « ألفنا الصليب على الهلال » ، ولا ذكره السمهرى . وقال آخر : إن عبارة « كصف من عوال » إفرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا نحمل تبعته . ويظهر أن الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع المحافظة على المعنى فأصلح بيتاً واحداً وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت :

نموت إليك مصر كما حيينا ويبقى وجهك المفدى حيا

وكانوا قد أخذوا عليه قوله « نموت إليك » لأنها لم تسمع فى كلام صحيح فلم يستطع إصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت رضاك مصر . . الخ » . وقد نشر كذلك فى صحيفة الأخبار — فلم يقتنعوا ، فجعلها أديب فى النسخ الأخيرة « نموت فداك » فاقتنعوا !

(ى) ونذكر أيضاً أنه كان بين المحكمين أعضاء من المغنين والعوادين جىء بهم ليحكموا فى أى الأناشيد أصلح للفخر القومى ، وأشد اعتلاجا فى الآلاتية يوعدون بالجائرة النفس ، وابتعاثا للحمية ، ومطابقة لنفسية الأمة ، وليديروه فى اللحن الذى يثبت القلوب الخائرة ، وينهض بالهمم العائرة ، ويسمعه الوالى فتضطرم

نفسه عزما ، واليائس فهجم إلى الأمل قدما ، والعدو فيتضعضع قلبه رعبا وغما . وليكون اللحن صوت الأمة فى سمع التاريخ ، ونجواها فى المواقف والأزمات ، فانظر أين ذهبوا بهؤلاء المظلومين ! هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟ وهل فيهم من يروى بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها ، وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغى أن تكون الموسيقى ؟؟ لقد علم كل إنسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ، ولكنها أصوات الذل والضراعة ، وألحان ينشدها النائم فلا يستيقظ ، ويسمعها الصاحى فينام .

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى ، وكان هذا وعده المعروف ، ولو أنه لم يعد لما دار بخلد أحدهم أنه على غناه يطمع فى مائة جنيه يحتجنها لنفسه ، فكان يهم الأعضاء أن يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادى الموسيقى . والنادى بحاجة إلى إعانة المتبرعين .

(هـ) ولا ننس أن اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل إليه هدايا شوقى ، على أنه تخلف عن الحضور فاضطروه إلى إرسال رأيه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف أصحابه أنه يتقى أن يرمى بالحسد إن أوما بالنقد إلى قرينه . ومن غرائبه أنه كان يثنى على النشيد فى الجلسة ، وقبل اجتماع الأعضاء ، فلما أعلن الأستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت . وعلمنا غير ما تقدم أموراً لا نحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد إلى النشيد غير آبهين للحكم له أو عليه ، وليكن قياسنا إياه أن نلتمس فيه أبسط الخصال التى هى قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الأناشيد القومية .

المويلحى يروغ وحافظ يحرج

(و) يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها ، وألا يكون وعظاً بل حماسة ونخوة ، وأن يكون موضوعاً على لسان الشعب وموافقاً لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب فى أناشيد الأمم . فهل نشيد شوقى على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟ !

شروط النشيد القومى

فأما قوة العبارة فليس فى النشيد بيت يدب له الدم فى عروق منشده ، وكل مفاخره أفرغت فى قالب هو أقرب إلى الأخبار منه إلى الحماسة ، وأقواها قوله :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حدثانه أخذ الأمانا

ونحن بنو السنا العالى نمانا أوائل علموا الأمم الرقيا

وليس فى هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لا تجد مثلها فى قول من يقول «كان لى بيت سعته كذا من الأذرع ، بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، إلى آخر أوصاف المساحة . . » فأى فرق بين قص المعلومات والحماسة إذن ؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمية ، ولكنه نم عن إعنات المقيد المجهود ، فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفاً معيباً ، واستعصى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت » سيلت ، و« تهيأ » تهيا . . « وشيئاً » شيا : نعوذ بالله من الشى .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

« بنى مصر مكانكم تهيا فهيا مهدوا للملك هيا
خذوا شمس النهار له حليا ألم تك تاج أولكم مليا

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدن وكوثرها الذى يجرى شهيا »

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ ؟ أجنى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟ ولقد استوطأ شوقى مطية الفلسفة والمواعظ بعد أن ركب حمارها ببيت واحد سوق المعنى وهو قوله :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وإيابا فى كل مكان ومقصد ، حتى طلع لنا بأذنى حماره الفلسفى هذا فى موعظته «على الأخلاق خطوا الملك» ولم يجد على الباب من يقول له : «يمينك أو شمالك . .» فكأنما كان شوقى على رهان أن يخالف قواعد الأناشيد ما أمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق ، لا لأن نشيده كان كما وصفته اللجنة «أكفاها وأوفاها بالغرض ، وأجمعها للمزايا التى ينبغى أن تتسق لنشيد قومى مصرى» فإنه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للأناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار .

(ز) وفى المقطوعة الأولى خطأ تاريخى ما أظرفه فى نشيد أمة تفتخر بتاريخها القديم ، فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر ، وإنما كانت معبودا لهم ، وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها . وأما تاج الفراعنة

جهل شائن بتاريخ مصر

الأول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحرى ، ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الاولى فى المدارس الثانوية . ثم حدثت بعد ذلك تيجان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة ، أو التى يرمز بها إلى العبادات ، ولم تكن الشمس قط حلية لهذه التيجان ... فياحبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنوانا على جهلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارىء أن نأخذ على شوقى مبالغته فى قوله « حذوا شمس النهار له حليا » فإننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه تأويل . وأما الموافقة لكل زمان فإننا نرى الرجل قد حسب أننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا . فنظم لنا نشيدا لا تتخطى به فى جميع العصور أن يتهيأ مكاننا ، وأن لا نبرح نشرع فى التمهيد ، ونأخذ فى الاستعداد ، ونبدأ برسم خطط الملك ، ونهم بتشييد الأركان . وما علمنا شاعراً قوميا يطاب إليه أن يكون فأل الأمة وهاتف مستقبلها ، فينعب فيها نعيب النحس ، وينذرها جموداً لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به .

(ج) ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الآنفة ، وأجهل ما يكون إذا وقف موقفاً وطنياً أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعشا البصيرة أن يكلف « ابن بجدتها » إنشاء دعاء قومى . أى دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترتله فى البيعة ، أو تشدو به فى الكنيسة . أو تصلى به فى المسجد ، فيخيل إليه أنه إذا جمع فروق الأديان كلها فى جملة واحدة فقد أتيح له هذا الغرض . فيستشفع فى دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق » ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبى الحق » فيكون ماذا ؟؟

توفيق بين الأديان غير موفق

يكون أن الإسرائيلى يحرم هذه الصلاة فى بيعته ، لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد ، وأن المسيحى لا يدعو الله به فى كنيسته ، لانه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الإسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب ، وأن المسلم يصلى به وحده ، فكأنه لم يشر فيه إلى دين غير دينه ، وأن الدعاء القومى لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو أن طاهيا صناعته تجهيز الموائد قيل له : إن ثلاثة من المدعوين فى الدار ليس يشتهى أحدهم طعام الآخر ، فعمل على إطعامهم جميعاً بمزج أطعمتهم كلها فى صحفة واحدة لطرد من فوره ، فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهاة ، ويغرق فى غفلة الذهن حتى أحسبه أحيانا يتعمد الإمعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضى

به إلى نهاياتها ، كمن يعثر بمعنى بديع ، فيتخلله ويتقصاه ، ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الأديان أجمع كى تكون شفاعة لكل دين ، عمد إلى ألصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لا يناسب هذا المقام ، والذى لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكوت عنه هنا : وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدرى شاعر مصر من رق مَن هرب موسى ؟ ؟ إنه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به ! ! وقد تجد فى خفراء الريف كياسة تمنعهم أن يطلبوا الإقالة بما يذكر بالذنب ، أو يتوسلوا إلى الشفاعة بما يتضمن الإساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ضلاله فى التعبير عن المعارف القومية

(ط) ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية ، فلا هو فى الشعر ولا فى النثر شاعر قومى موفق العبارة ، وقد قرناهما لتشابه الخطأ فيهما ، وربما كان خطؤه فى النشيد أخف وأهون : من حيث أن الأناشيد لا يصلى بها فى المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد أننا لا نرى معنى لزج الأديان فى الأناشيد الوطنية ، فقد كان يكون أدل على الوفاق ألا نجعل وفاق الأديان مباهاة ومأثرة ، لأن المرء يباهى بالشىء النادر أو غير المنتظر ، وهذه الأمم المتحضرة والمتبدية : أليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟ ؟ أتراها لا تحب أن يكون الوفاق شعارا لها .

تلحين الملحنين

(ى) ولقد قدمنا أننا لا نقصد إلى الإفاضة فى نقد النشيد ، فحسبنا نقارنه بما نعلمه من الأناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد أخذنا من مساوئه ما أخذنا فليس يسعنا أن نهمل ما أخذنا سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك أنهم يستقبحون تلحين إحدى مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا فلما آل للتاريخ ذخرا

نشأنا نشأة فى المجد أخرى الخ الخ

ويقولون إن التنوين لا بد أن يسقط فى الإنشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت فإذا انتهى المنشد مثلا إلى كلمة « فخرا » ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟؟ ولسنا

نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد فى موقفه والملحن فى صنعته .

نقول: هذا هو النشيد الذى «يبقى لحركة هذه الأمة شعارا ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا كما تقول اللجنة — نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا إلا عجب من تفضيله على النشيد الثانى ، ومن اجتراء اللجنة على تقديمها معا إلى الصحف غلوا منها فى استجهان الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارىء أننى ما كنت أظن فى جمهور قراء الأدب استقلالا يقاوم تآمر المحكمين والصحافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة ، ونزوعا إلى إحلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشيدين المنشورين ، وفى هذا الاستغلال أمل نغتبط به ونحمد بشائره .